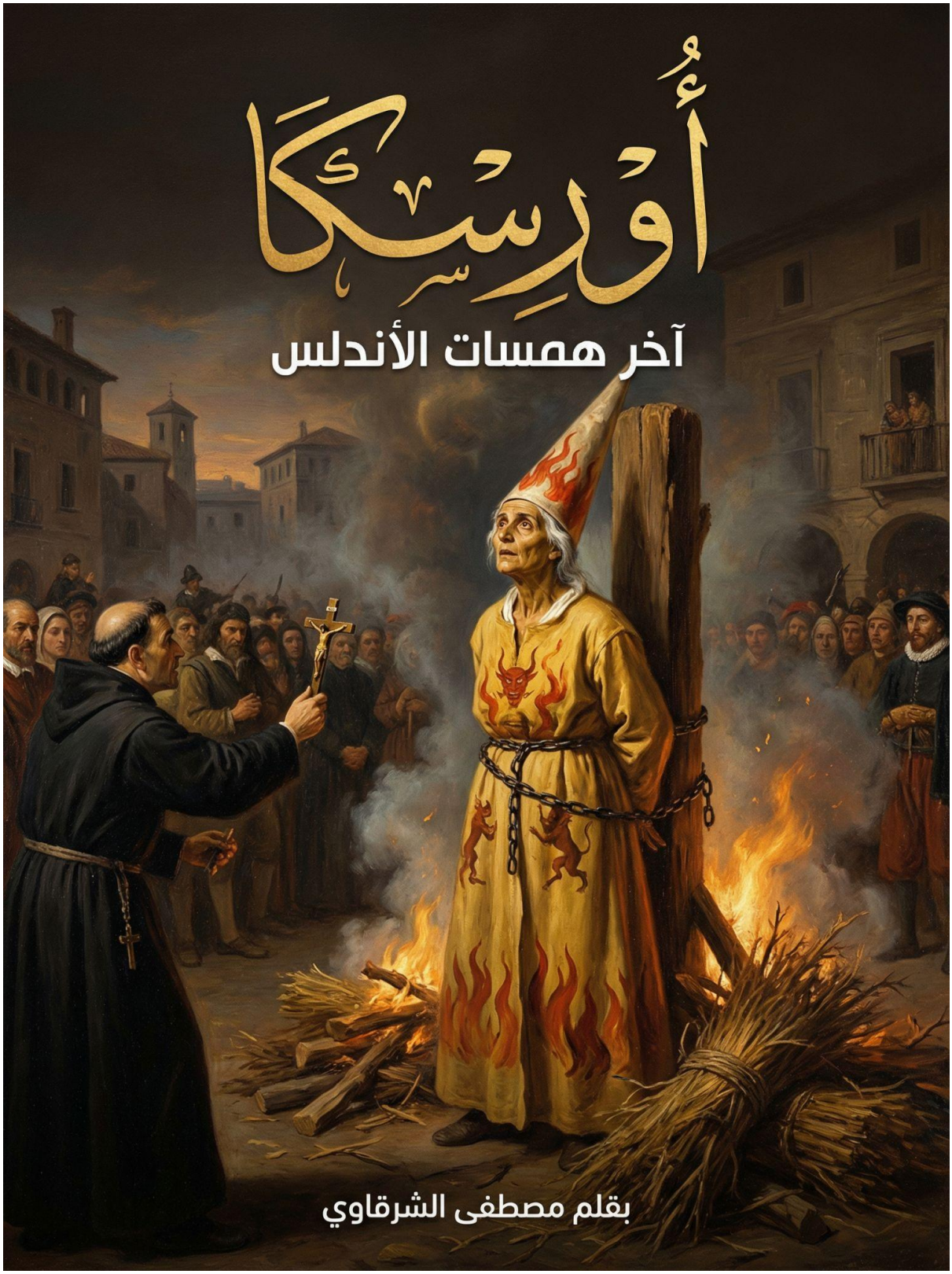
أُورِسِكَا
آخر همسات الأندلس
بقلم مصطفى الشرقاوي

أُورِسْكَا

آخر همسات الأندلس

رواية مبنية على قصة حقيقية من الأرشيف الإسباني

بقلم: مصطفى الشرقاوي

المقدمة

من رماد الأرشيف

في قبوٍ عميقٍ من أقبية الأرشيف التاريخي الوطني الإسباني، حيث تتراكم وثائق محاكم التفتيش كأنها طبقات من الألم المنسيّ، ترقد ملفات لم يُرِد لها أحدٌ أن تُقرأ ثانيةً.

وبين آلاف الصفحات المصفرّة التي تفوح منها رائحة الرماد والحبر القديم، عُثر على اسمٍ لامرأةٍ كُتب بحروفٍ لاتينية باردة "مارية كليمنتي" كأنه مجرّد رقمٍ في سجلٍّ طويلٍ من الإدانات.

لكنها لم تكن مارية.

كانت أورسكا. وهذا هو اسمها الحقيقي الذي سُرق منها مثلما سُرق منها دينها ولسانها وحريتها وحياتها.

هذه القصة التي بين يديك ليست خيالًا أدبيًّا. إنها قصة حقيقية موثّقة في الأرشيف التاريخي الوطني الإسباني تحت الرقم المرجعي: AHN, Inq. lib. 834, f°263 r°، وقد أشارت إليها الباحثة الفرنسية جان فيدال في كتابها «حين كانوا يحرقون الموريسكيين».

كلّ ما فُعل هنا هو أن الحقائق العارية التي رصدها كتبة محاكم التفتيش بلا مبالاة نُفخت فيها الروح التي حاولوا إطفاءها، وأُعيد لهذه المرأة صوتها الذي خنقه الدخان قبل أربعة قرون ونصف.

ولكي تفهم قصة أورسكا، عليك أن تفهم أولًا ما الذي حدث لعالمها.

في الثاني من يناير سنة 1492م، سقطت غرناطة آخر قلاع الإسلام في الأندلس في يد الملكَيْن الكاثوليكيَّيْن فرناندو وإيزابيلا.

كان ذلك السقوط نهاية حكمٍ إسلامي امتدّ قرابة ثمانية قرون، أقام المسلمون خلالها حضارةً لم تعرف أوروبا لها مثيلًا: مدنًا تتلألأ بالعلم والفن والعمارة، ومكتباتٍ تضمّ مئات الآلاف من المخطوطات، ومجتمعًا عاش فيه المسلمون والمسيحيون واليهود جنبًا إلى جنب في تعايشٍ لا تكاد أوروبا القرون الوسطى تعرفه.

حين سلّم أبو عبد الله محمد الصغير مفاتيح غرناطة، لم يكن يسلّم مدينةً فحسب، بل كان يسلّم شعبًا بأكمله إلى مصيرٍ مجهول. أُعطيت العهود والمواثيق: سيُحترم دين المسلمين، وستبقى مساجدهم قائمة، وسيُترك لهم لسانهم وعاداتهم. كانت هذه العهود كلماتٍ من حبرٍ كُتبت على ورقٍ هشّ، وما إن جفّ الحبر حتى بدأ النقض.

لم تمرّ سنواتٌ قليلة حتى بدأ الكاردينال سيسنيروس المتعصّب الذي لم يكن يرى في الإسلام إلا ظلامًا يجب محوه بحملة تنصيرٍ قسري وحشية. أمر بجمع آلاف المخطوطات العربية في العلوم والطب والفلسفة والأدب والدين وأشعل فيها النار في ساحة باب الرملة بغرناطة. يُقال إن النار ظلّت مشتعلة أيامًا، وإن رماد تلك الكتب ظلّ يتطاير في سماء المدينة كأنه أرواحٌ تودّع وطنها. ولم يستثنِ سيسنيروس من محرقته إلا بضع مخطوطاتٍ طبية رأى أنها قد تنفع النصارى.

ثم جاء عام 1500م، فصدرت القرارات التي قلبت حياة المسلمين رأسًا على عقب: التنصير أو الطرد. من أراد أن يبقى في أرضه الأرض التي عاش فيها أجداده قرونًا فعليه أن يتعمّد ويحمل اسمًا نصرانيًّا ويمشي إلى الكنيسة كل أحد. حُوّلت المساجد إلى كنائس بين ليلةٍ وضحاها، ومُحيت النقوش القرآنية من على الجدران، وصدرت مراسيم تحرّم اللغة العربية

والأسماء الإسلامية والملابس التقليدية وحتى الاستحمام يوم الجمعة. نعم، الاستحمام. لأن النظافة صارت دليل إدانة.

ثم جاءت محاكم التفتيش تلك الآلة الجهنمية لتتأكد من أن كل شيءٍ قد مُحي حقًّا. صار الامتناع عن أكل لحم الخنزير تهمة. وتغيير الثياب يوم الجمعة جريمة. والهمس بكلمةٍ عربية واحدة خيانة. والصوم في رمضان حكمٌ بالموت. كان على المسلمين أن يأكلوا ما يحرّم الله عليهم، ويشربوا ما نهاهم عنه، ويسجدوا لمن لا يؤمنون به أو يُحرقوا أحياء.

اختار كثيرون أن يعبروا البحر فرارًا إلى شمال أفريقيا، تاركين كل شيءٍ خلفهم: بيوتهم وأراضيهم وذكرياتهم وقبور أجدادهم. لكن كثيرين أيضًا لم يستطيعوا الرحيل ربما لأنهم كانوا فقراء، أو مرضى، أو لأن جذورهم في هذه الأرض كانت أعمق من أن تُقتلع. فبقوا، وارتدوا قناع التنصّر، وحملوا أسماء مارية وخوان وبيدرو على ألسنتهم، بينما ظلّ في صدورهم اسمٌ آخر واسم الله الواحد الأحد.

عُرف هؤلاء بالموريسكيين أي «المسلمين الصغار» كما سمّاهم النصارى بازدراء وعاشوا حياةً مزدوجة قد تكون من أقسى أشكال الوجود الإنساني. في النهار: كنيسة وصليب ولحم خنزير وابتسامة مصطنعة. في الليل: وضوء سرّي وصلاة بلا أذان وقرآن يُتلى بصوتٍ أخفض من نبضات القلب. كان أطفالهم يُعمَّدون في الكنيسة ثم يُغسَلون في البيت لإزالة أثر ماء التعميد. وكانت النساء هن حارسات هذا السر الأمّهات اللواتي حملن الدين كلّه على أكتافهن وزرعنه في قلوب الصغار همسًا، لأن الجهر يعني الموت.

في هذا العالم المخنوق وُلدت أورسكا. وفي هذا العالم عاشت وعلّمت وصامت. وفي هذا العالم أُحرقت.

لكنها لم تمُت صامتة. لأنكَ الآن بعد أربعة قرونٍ ونصف تقرأ قصتها.

هذه الرواية ليست نبشًا في التاريخ من أجل الجراح. إنها فعل عدالةٍ متأخر: أن نُعيد لامرأةٍ اسمها الذي سُلب، وصوتها الذي خُنق، وقصتها التي أرادوا لها أن تبقى مجرّد سطرٍ في ملف إدانة يتعفّن في قبو.

الحوارات والمشاهد التفصيلية هي ترميم أدبي مبني على ما نعرفه من المصادر التاريخية عن حياة الموريسكيين وطقوسهم ومعاناتهم أما الوقائع الجوهرية فهي كما وردت في الأرشيف: امرأة موريسكية اسمها مارية كليمنتي، أرملة، تجاوزت الخمسين، علّمت أبناءها الإسلام سرًّا، وذكّرت جيرانها بصيام رمضان، وُشي بها لمحاكم التفتيش، واعترفت بإيمانها ولم تتراجع، فأُحرقت حيّة في ساحة مدينة لوغرونيو يوم الثاني والعشرين من يوليو سنة 1585م.

كلّ ما في هذه القصة حقيقي. والألم حقيقي. والإيمان حقيقي.

والنار التي أكلت جسدها لم تستطع أن تمسّ ما في صدرها.

الفصل الأول

الاسم الذي لم تختره

في بيتٍ صغيرٍ من بيوت البيازين، ذلك الحيّ الذي كان يومًا يتنفّس بالأذان ويستيقظ على تلاوة الفجر، وُلدت طفلةٌ في ليلةٍ من ليالي شتاء سنة 1533م. لم يصدح لها أذان، ولم تُقَم لها عقيقة، ولم يُذبح عنها كبش كما كان يفعل أجدادها منذ مئات السنين. خرجت إلى الدنيا في صمتٍ حذر، كأن العالم حولها كان يقول لها منذ لحظتها الأولى: اخفضي صوتكِ، فالجدران لها آذان.

حملتها أمّها إلى صدرها وهمست لها بكلماتٍ لم يسمعها إلا الله والجدران: «بسم الله الرحمن الرحيم». ثم أذّن أبوها في أذنها اليمنى بصوتٍ أخفض من حفيف الريح، أذانٌ كامل لكنه بلا صوت تقريبًا، مجرّد حركة شفتين وهواء يتسرّب بين الحروف. كان هذا أول درسٍ تعلّمته الطفلة قبل أن تتعلّم أي شيء: أن الإيمان في هذا البيت شيءٌ يُهمَس ولا يُقال.

سمّوها أورسكا.

لكن هذا الاسم لم يُكتب في أي سجل. ففي اليوم التالي حُملت إلى كنيسة سان سلبادور، التي كانت قبل سنوات مسجد المرابطين، ورُشّ على جبينها ماء التعميد، وكتب القسّ في دفتره: «مارية كليمنتي، ابنة ميغيل كليمنتي وإيزابيل دي مدينا، عُمِّدت في اليوم الفلاني من الشهر الفلاني من سنة ربنا 1533». ميغيل الذي كان اسمه الحقيقي مصطفى. وإيزابيل التي كانت زينب. ومارية التي كانت أورسكا. ثلاثة أسماءٍ مسروقة في سطرٍ واحد.

حين عادوا إلى البيت في ذلك المساء، فعلت أمّها ما كانت تفعله كل أمٍّ موريسكية: أخذت الطفلة وغسلتها بماءٍ دافئ من رأسها إلى قدميها، غسلًا طويلًا حريصًا، كأنها تمحو عن جلدها أثر ما جرى في الكنيسة. لم تقل شيئًا. لم تكن بحاجةٍ لأن تقول. كانت يداها تتكلّمان: هذا الماء يعيدكِ إلينا، هذا الماء يغسل ما ليس منكِ، هذا الماء هو الماء الحقيقي.

أول ما حفظته عيناها من هذا العالم كان التناقض.

كان البيت من الخارج بيتًا نصرانيًّا لا يختلف عن بيوت الجيران: صليبٌ صغير فوق الباب، وصورة للعذراء معلّقة في المدخل، وقطعة لحم خنزيرٍ مملّحة تتدلّى من عارضة السقف في المطبخ ليراها كل من يزور البيت. لكن خلف هذا القناع كان ثمة بيتٌ آخر. الصليب فوق الباب مجرّد قطعة خشب لا يرفع لها أحدٌ في البيت عينًا. وصورة العذراء موضوعة لأن الجارة النصرانية تمرّ أحيانًا وتُلقي نظرة. ولحم الخنزير المعلّق لا يمسّه أحد، يعلّقونه حتى يجفّ ثم يرمونه سرًّا ويعلّقون غيره. ديكورٌ من الخداع يُصان كل يوم كأنه طقسٌ خامس من أركان البقاء.

أما من الداخل، الداخل الحقيقي الذي لا تراه عينٌ غريبة، فكانت هناك زاويةٌ صغيرة في الغرفة الخلفية، خلف صندوقٍ خشبي ثقيل، يكاد المرء لا يلاحظها، فيها حصيرة نظيفة مطوية. تلك كانت مصلّى البيت. وكان تحت الأرضية، في فجوةٍ محفورة بعناية، قماشة ملفوفة بإحكام، في داخلها بضع صفحاتٍ باللغة العربية. ليست مصحفًا كاملًا، فالمصاحف الكاملة صارت أندر من الذهب بعد محرقة سيسنيروس، بل أوراقٌ فيها سور من القرآن نسخها أبوها بيده من ذاكرته قبل أن يُنسيه الخوف ما يحفظ. كانت هذه الأوراق أثمن ما يملكه البيت. أثمن من كل شيء.

كان أبوها مصطفى، الذي صار ميغيل، رجلًا هادئًا قليل الكلام، كأن السنوات علّمته أن الصمت أرخص ثمنًا من الحروف. يعمل حدّادًا في السوق، يبتسم لزبائنه النصارى، يحضر القدّاس يوم الأحد ويحرّك شفتيه بما يشبه الصلاة، لكنه في الحقيقة يقرأ الفاتحة. تعلّم هذه

الحيلة من أبيه: أن تحرّك شفتيك مع الجميع، لكن لسانك يقول شيئًا آخر. صلاةٌ داخل صلاة. قناعٌ فوق قناع.

لكن في الليل، حين يُغلق الباب وتُطفأ الشموع إلا واحدة، كان ميغيل يتحوّل إلى مصطفى. يخلع عن روحه ثياب النهار ويتوضّأ بماءٍ أعدّته زوجته، ويقف في الزاوية خلف الصندوق، ويصلّي. كانت أورسكا تراقبه من فراشها بعينين واسعتين لا تطرفان، ترى أباها يركع ويسجد في صمتٍ كامل، لا صوت إلا أنفاسه، حتى دعاءه كان بلا صوت، مجرد دموعٍ تسيل على خدّيه في السجود. كانت تلك الصورة أول صورةٍ حُفرت في ذاكرة الطفلة: أبوها يبكي وهو ساجد، والشمعة ترتجف، والعالم كلّه نائم.

وكانت أمّها زينب، إيزابيل في سجلات الكنيسة، هي المعلّمة الأولى. امرأةٌ لم تقرأ كتابًا في حياتها، لأن الكتب أُحرقت قبل أن تولد، لكنها كانت تحفظ في صدرها ما لا تستطيع المحارق أن تمحوه. حفظت من أمّها سورة الفاتحة وسورة الإخلاص وسورة الناس وسورة الفلق وآية الكرسي وأجزاءً من سور أخرى، تحفظها بلفظٍ فيه عُجمة أحيانًا، لأن العربية لم تعد لغة التعليم بل لغة التوارث الشفهي، لكنها تحفظها بقلبٍ لا يخطئ. كانت تضمّ أورسكا إلى صدرها كل ليلة وتهمس لها: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد» وتطلب منها أن تردّد خلفها، حرفًا حرفًا، كأنها تزرع بذورًا في تربةٍ حيّة قبل أن يجيء الشتاء.

سألتها أورسكا ذات ليلة، وكانت في الخامسة ربما أو السادسة، بسؤالٍ ظلّ يكبر معها:

— يمّا... لماذا لا نصلّي مثل الناس في الكنيسة؟ هم يصلّون والكل يراهم. ونحن نصلّي ولا يرانا أحد.

صمتت زينب لحظة. ثم قالت بصوتٍ أثقله الحزن:

—— لأن صلاتنا لله وحده يا ابنتي. وهم يريدوننا أن نصلّي لغيره. الذي يرانا هو الله، وهو يكفي.

—— لكن أنا أخاف يمّا.

ضمّتها زينب أكثر وقالت:

—— والله يعلم أنكِ تخافين. وهو يحبّ الذي يعبده وهو خائف أكثر مما يحبّ الذي يعبده وهو آمن. لأن الخائف يختار الله رغم كل شيء.

لم تفهم أورسكا هذا الكلام كلّه في تلك الليلة. لكنها حفظته. حفظته كما حفظت السور. حفظته في مكانٍ عميق لا يصل إليه أحد. وسيظلّ هذا الكلام يمشي معها حتى ساحة لوغرونيو.

وكانت في البيت جدّة.

كانوا يسمّونها «نانا حورية» هكذا بالعربية فيما بينهم، وأمام الناس كانت «الأبويلا كارمن». امرأةٌ صغيرة الجسد كبيرة الروح، جاوزت السبعين، ظهرها محنيٌّ لكن صوتها لم ينحنِ يومًا. كانت قد وُلدت في السنوات الأولى بعد سقوط غرناطة، وعاصرت تحوّل العالم بعينيها: رأت المساجد وهي تصير كنائس، ورأت المؤذنين وهم يختفون واحدًا بعد واحد، ورأت النار تأكل الكتب في ساحة باب الرملة. كانت طفلة صغيرة يومها، لكنها لم تنسَ أبدًا تلك الرائحة: رائحة الورق المحترق الممزوجة برائحة الجلد المدبوغ وشيءٍ آخر لا اسم له، كأنه رائحة حضارةٍ تحتضر.

كانت نانا حورية هي الحافظة الكبرى. لا للقرآن فقط، فقد كانت تحفظ منه أكثر مما تحفظه زينب، بل للذاكرة كلّها. كانت تعرف أسماء المساجد قبل أن تتحوّل. تعرف أين

كانت المكتبة الفلانية وأين كان يجلس الشيخ الفلاني يُقرئ الطلاب. تعرف نغمة الأذان الذي كان يصدح من منارة جامع غرناطة الكبير قبل أن تُقطع رأسها ويُرفع مكانها جرس. كانت كأنها متحفٌ حيّ يمشي على قدمين، متحفٌ لعالمٍ كامل لم يبقَ منه إلا ما في صدرها.

في ليالي الشتاء الطويلة، حين يكون البرد عذرًا كافيًا لإغلاق الأبواب باكرًا والاختباء من العيون، كانت نانا حورية تجلس قرب الموقد وحولها أورسكا وإخوتها وتحكي. لم تكن تحكي حكاياتٍ خرافية كالتي يحكيها الجدّات عادة، بل كانت تحكي حكاية شعبها. كانت تقول:

—— كان هنا مسجد اسمه مسجد الموحّدين. كان فيه صحنٌ واسع وفيه شجرة برتقال عمرها مئتا سنة. وكان الناس يتوضّؤون من نافورته ويصلّون الجمعة فيه بالمئات. أبي أخذني إليه مرة وأنا صغيرة، آخر جمعة قبل أن يحوّلوه. أذكر أن الإمام بكى في الخطبة ولم يستطع أن يكمل. ما كنتُ أفهم لماذا يبكي. الآن أفهم.

كانت أورسكا تسمع وعيناها تلمعان. لم تكن تفهم كل شيء، لكنها كانت تفهم الألم. كانت تفهم أن العالم الذي تحكي عنه جدّتها عالمٌ جميل سُرق. وكانت تفهم أن هذا الذي يفعلونه في الليل، الصلاة والوضوء والهمس بالعربية، ليس ضعفًا ولا خوفًا، بل هو آخر خيطٍ يربطهم بذلك العالم المسروق.

ذات ليلة سألتها:

—— نانا، هل سيرجع كل شيء كما كان؟

نظرت إليها حورية طويلًا. ثم قالت بصوتٍ خفيض لكنه كان أصلب من الحديد:

— لا أعرف يا حبيبتي. لكن الذي أعرفه أنهم يستطيعون أن يهدموا المساجد ويحرقوا الكتب ويغيّروا الأسماء ويحرّموا اللسان. لكنهم لا يستطيعون أن يدخلوا هنا.

ووضعت يدها العجوز المرتجفة على صدرها.

— ما دام هذا ينبض بـ«لا إله إلا الله»... فالأندلس لم تسقط.

كبرت أورسكا وكبر معها الخوف والإيمان معًا، توأمان لا ينفصلان. تعلّمت أن تمشي إلى الكنيسة يوم الأحد وتجلس وتنحني وتحرّك شفتيها مع الجميع، لكن شفتيها تقرأ الفاتحة.

تعلّمت أن تبتسم حين تقدّم لها جارتها طبقًا فيه لحم خنزير، وأن تأخذه شاكرةً ثم تتخلّص منه بعيدًا عن العيون. تعلّمت أن تقول «باسم الأب والابن والروح القدس» أمام الناس، و«بسم الله الرحمن الرحيم» حين لا يراها أحد. تعلّمت أن تعيش حياتين في جسدٍ واحد، ووجهين في وجهٍ واحد، واسمين في روحٍ واحدة.

تعلّمت أن تكون مارية في النهار.

وأن تكون أورسكا فقط حين ينام العالم.

لكنها عرفت دائمًا، بيقينٍ لم يهتزّ يومًا، أيّ الاسمين هو الحقيقي.

لأن أمّها زرعت فيها ذلك اليقين حرفًا حرفًا، وجدّتها سقته دمعةً دمعة، وأبوها أكّده سجدةً سجدة في ظلام الليل.

وكانت هذه هي الجريمة التي ستدفع ثمنها بعد خمسين سنة.

أنها لم تنسَ من تكون.

الفصل الثاني

بيت الماء

ماتت نانا حورية في شتاء سنة 1547م.

ماتت كما عاشت: في صمت. نامت ذات ليلة ولم تستيقظ. وجدتها زينب في الصباح وهي مستلقية على جنبها الأيمن، ويدها اليمنى تحت خدّها، كأنها كانت تصلّي وهي نائمة، أو كأن الموت جاءها وهي في سجدتها الأخيرة فلم يشأ أن يزعجها فأخذها برفق. كانت أورسكا في الرابعة عشرة يومها، وكان ذلك أول موتٍ تراه بعينيها.

لم يستطيعوا أن يغسّلوها الغسل الذي تستحقّه. أرادوا ذلك، لكن الخوف كان أقوى. فالجيران سيسألون لماذا تأخّر تسليم الجثة للكنيسة، ولماذا استهلك البيت كل هذا الماء، ومن كان يتلو تلك الأصوات الغريبة من وراء الباب. فاكتفت زينب بأن غسلتها سرًّا غسلًا سريعًا بما تيسّر، وهي تبكي بلا صوت، وكفّنتها بقطعة قماشٍ أبيض نظيفة تحت ثيابها النصرانية. ثم حُملت نانا حورية إلى الكنيسة، وصلّى عليها قسّيس لم تؤمن به يومًا، ودُفنت في مقبرة لا يُدفن فيها إلا المعمّدون، ورُسم صليبٌ على قبرها وهي التي عاشت تسعين سنة لا تعرف إلا «لا إله إلا الله».

في تلك الليلة، بعد أن نام الجميع، دخلت أورسكا إلى الغرفة التي كانت تنام فيها جدّتها. جلست في مكانها قرب الموقد البارد. وفعلت شيئًا لم تفعله من قبل: حاولت أن تتذكّر كل شيء. كل قصة حكتها نانا حورية. كل اسم مسجد ذكرته. كل جملةٍ بالعربية علّمتها إياها. كل نغمة أذان وصفتها. أغمضت عينيها وراحت تسترجع، كأنها تنقل ما في صدر جدّتها إلى صدرها قبل أن يضيع إلى الأبد. وأقسمت في تلك الليلة قسمًا لم تقله بلسانها لكن قلبها نطقه بوضوح: لن يموت ما حملتِه يا نانا. سأحمله أنا من بعدكِ.

لم تكن تعرف أنها بهذا القسم كانت ترسم طريقها إلى عمود الحرق في ساحة لوغرونيو.

مرّت السنوات بطيئةً ثقيلة كأيام السجين الذي لا يعرف متى ينتهي حكمه.

مات أبوها مصطفى في سنة 1552م. سقط في السوق فجأة ولم يقم. قالوا إن قلبه توقّف. لم يكن قد تجاوز الخمسين، لكنه كان يحمل في صدره ما يكفي لإنهاك عشرة رجال: عمرٌ كامل من الخوف والتظاهر وابتلاع الكلمات وقراءة الفاتحة بشفتين مغلقتين. دُفن مثل أمّه في مقبرة النصارى تحت صليبٍ لم يكن له، وصلّت عليه زينب سرًّا في البيت بعد أن عاد الجميع من الكنيسة.

بعد وفاة أبيها بسنة، خُطبت أورسكا.

جاءها رجل اسمه في السجلات لويس دي مدينا. حدّاد مثل أبيها، ابن عائلة موريسكية من حيّ البيازين أيضًا. لم يكن وسيمًا ولا غنيًّا ولا ذا شأنٍ ظاهر في المدينة. لكنه كان يحمل السرّ نفسه. كان مسلمًا تحت جلد نصراني، ويعرف الفاتحة وسورة الإخلاص، ويصلّي في الليل ويصوم في رمضان. وهذا وحده كان كافيًا. لأن الزواج في عالم الموريسكيين لم يكن مجرد ارتباط بين رجل وامرأة، بل كان تحالف بقاء. كل بيتٍ موريسكي يتزوّج من بيتٍ موريسكي آخر كان يعني أن السلسلة لن تنقطع، وأن الأطفال القادمين سيجدون أبًا وأمًا يعلّمانهم ما لا يستطيع أحدٌ غيرهم أن يعلّمهم.

تزوّجا في الكنيسة كما يقتضي القانون. قسّيس ومذبح وشموع وعهود باسم الثالوث. ثم عادا إلى البيت وأعادا العقد بينهما وبين الله: بسملة وفاتحة وشهادة أن لا إله إلا الله في حضور زينب وأخوَيْ أورسكا. زواجان في يومٍ واحد: واحدٌ للناس وواحدٌ لله. وكان الثاني هو الحقيقي.

انتقلت أورسكا مع لويس إلى بيتٍ صغير في طرف الحيّ، قريبٍ من ساقية تمرّ خلف البيوت. وهذا القرب من الماء لم يكن صدفة. كان لويس قد اختار هذا البيت بعناية، لأنه كان يعرف أن الماء هو أثمن شيء يحتاجه بيتٌ موريسكي وأخطره في آنٍ واحد.

الماء عند المسلمين ليس كالماء عند غيرهم. الماء وضوء قبل كل صلاة. الماء غسل الجنابة. الماء طهارة الجمعة. الماء نظافة لا تنقطع في زمنٍ كان فيه كثير من النصارى لا يستحمّون إلا مرات معدودة في السنة. وهذا الفرق بالذات كان القاتل الصامت. كان جواسيس محاكم التفتيش يعرفون أن البيت الذي يدخله ماءٌ أكثر من المعتاد بيتٌ مشبوه. كانوا يراقبون السواقي ويعدّون الجرار ويسألون السقّائين: من يشتري الماء أكثر من جيرانه؟ وكان الجواب غالبًا هو الخيط الذي يقودهم إلى فريستهم.

عرف لويس هذا، فاحتاط. كان يجلب الماء من الساقية في الليل أحيانًا، أو يجعل أورسكا تغسل الثياب أمام الباب نهارًا كعذرٍ لكثرة الماء، أو يملأ الجرار بحجة سقي حديقةٍ صغيرة خلف البيت. لكن الماء يبقى ماءً، وعيون الجيران تبقى عيونًا، والحذر مهما بلغ لا يستطيع أن يُخفي كل شيء.

أنجبت أورسكا أول أطفالها بعد سنةٍ من الزواج. ثم جاء الثاني والثالث. وصار البيت الصغير يضجّ بالحياة، وصارت أورسكا أمًّا. وحين صارت أمًّا، اكتشفت أن كل ما علّمتها إياه أمّها وجدّتها كان يُعِدّها لهذه اللحظة بالذات. لأن أخطر معركة في حياة الموريسكيين لم تكن في الأسواق ولا في الكنائس ولا أمام محاكم التفتيش، بل كانت في غرف الأطفال. المعركة الحقيقية كانت: هل سيكبر هذا الطفل وهو يعرف من هو، أم سينجح هؤلاء في محوه؟

بدأت أورسكا تفعل ما فعلته أمّها وجدّتها من قبلها. كانت تنتظر حتى ينام لويس أو يخرج، ثم تضمّ أطفالها إليها وتهمس. تعلّمهم البسملة أولًا، ثم الشهادة، ثم الفاتحة. حرفًا حرفًا. كلمةً كلمة. كانت تكرّر عليهم حتى يحفظوا، ثم تسألهم بعد أيام لتتأكد أنهم لم ينسوا. وكانت تقول لهم ما قالته لها أمّها: هذا سرّنا. لا تقولوه لأحد. لا للجيران ولا لأصدقائكم ولا للقسّيس ولا لأي أحد. هذا بيننا وبين الله فقط.

وكان الأطفال يسألون كما سألت هي من قبل:

—— لماذا يا أمّي؟

فتجيب بالجواب نفسه الذي لا يشيخ:

—— لأنهم لو عرفوا سيؤذوننا. لكن الله يرانا ويعلم ما في قلوبنا وهذا يكفي.

ثم تمسح على رؤوسهم وتقول: ناموا الآن. غدًا أعلّمكم آية الكرسي.

كان البيت من الخارج بيتًا عاديًّا لا يلفت النظر. باب خشبي قديم، وجدران بيضاء مثل كل بيوت الحيّ، وصليبٌ صغير فوق المدخل. لكن إن دخلت إلى هذا البيت في الأوقات التي لا يدخله فيها أحد، لرأيت عالمًا آخر يتنفّس تحت السطح.

يوم الجمعة كان يومًا مختلفًا. لم تكن أورسكا تستطيع أن تصلّي الجمعة جماعةً كما كان يفعل أجدادها، فلا مسجد ولا إمام ولا خطبة. لكنها كانت تُحيي الجمعة بطريقتها.

تستيقظ قبل الفجر وتتوضّأ وتصلّي ما تيسّر. ثم تغتسل غسلًا كاملًا، وتغسل أطفالها، وتُلبسهم أنظف ما عندهم. وتطبخ طعامًا طيبًا من لحم الضأن أو الدجاج، لا يقترب من الخنزير ولا من شيء محرّم. وكانت تجعل البيت كلّه نظيفًا مرتّبًا كأن عيدًا قادم. ولم يكن الجيران يلاحظون هذا في البداية، لأن أورسكا كانت تحسب كل خطوة. لكن مع مرور

السنين، صار النمط يتكرّر: كل جمعة البيت نظيف، والأطفال نظيفون، ورائحة الطعام الطيب تخرج من المطبخ، والماء لا يتوقف عن الدخول.

والماء. الماء مرةً أخرى. الماء الذي كان يدخل هذا البيت أكثر من أي بيتٍ آخر في الحيّ. ماء الوضوء خمس مرات في اليوم لكل من يصلّي. ماء غسل يوم الجمعة. ماء الاستنجاء. ماء الطهارة. ماء غسل اليدين قبل الأكل وبعده. كل هذا الماء كان يتسرّب في الساقية ويمرّ أمام أعين الناس، وكل قطرةٍ منه كانت شاهدًا صامتًا على ما يحدث خلف الباب. لم يكن الماء هو الدليل الوحيد. كان هناك لحم الخنزير الذي لا يُؤكل أبدًا. كانت أورسكا تشتريه أحيانًا وتعلّقه في المطبخ للعيون، لكنها لا تطبخه ولا يأكله أحدٌ في البيت. وإذا دُعيت إلى وليمة عند جيرانها النصارى وقُدّم لها لحم خنزير، كانت تمضغ ببطء وتبتلع أقلّ ما يمكن ثم تتظاهر بالشبع. وكان هناك الخمر الذي لا يدخل البيت. ففي حيٍّ يشرب أهله النبيذ كما يشربون الماء، كان بيت لويس ومارية هو البيت الوحيد الذي لا تُرى فيه قارورة نبيذ على المائدة. كان لويس يعتذر بأن بطنه لا يحتمل الخمر، وهي حيلةٌ كان يلجأ إليها كثير من الموريسكيين، لكنها لم تكن تنطلي على كل أحد.

ومع ذلك عاشوا. عاشوا سنواتٍ طويلة في هذا التوازن الهشّ بين القناع والحقيقة. تمرّ أيام يظنّون فيها أن العالم نسيهم، وأن محاكم التفتيش مشغولة بغيرهم، وأنهم يستطيعون أن يتنفّسوا قليلًا. ثم يأتي خبرٌ يعيد الخوف كلّه دفعةً واحدة: جارٌ موريسكي اعتُقل لأنهم وجدوا في بيته ورقةً بالعربية. أو امرأةٌ أُخذت إلى التحقيق لأن جارتها أخبرتهم أنها لا تأكل الخنزير. أو رجلٌ أُحرق في ساحة المدينة لأنه ضُبط يصلّي في الحقل. كان الموت يدور حولهم كذئبٍ صبور لا يستعجل فريسته، يعرف أنها لن تذهب إلى أي مكان.

ثم في سنة 1568م، انفجر كل شيء.

ثار الموريسكيون في جبال البشرات ثورة اليأس الأخيرة. بعد سبعين سنة من الإذلال والقهر والمحو، حمل رجالٌ سيوفًا صدئة ونزلوا من الجبال يقاتلون. لم تكن ثورةً منظمة بقدر ما كانت صرخة ألمٍ طويلة كتمها قومٌ حتى كادت تقتلهم فخرجت دفعةً واحدة. دامت الثورة سنتين واستُبيحت فيها قرى وسالت فيها دماء من الطرفين، ثم سُحقت كما يُسحق كل شيءٍ ضعيف أمام آلة الدولة.

لكن عاقبة الثورة كانت أشدّ من الثورة نفسها. قرّر التاج الإسباني أن وجود الموريسكيين في غرناطة خطرٌ لا يُحتمل بعد اليوم. فصدر الأمر بالتهجير: كل الموريسكيين يُنقلون من غرناطة ويُشتّتون في أنحاء قشتالة. شُرّدت عائلاتٌ بأكملها من بيوتها التي عاشت فيها أجيالًا. مشى آلاف الرجال والنساء والأطفال في قوافل كقوافل العبيد، تحت حراسة الجنود، إلى مدنٍ لا يعرفونها ولا يعرفهم فيها أحد.

كانت أورسكا في الخامسة والثلاثين حين أُخرجت من غرناطة مع لويس وأطفالها وأمّها زينب. مشوا في قافلةٍ طويلة تحت حراسة الجنود، مئات العائلات تمشي على أقدامها في طرقاتٍ ترابية بين الجبال، يحملون على ظهورهم ما استطاعوا حمله ويتركون خلفهم ما لا يُحمل. كان الصيف قد بدأ لكن الليالي في الجبال باردة، والطعام شحيح، والماء أشحّ، والجنود لا يسمحون بالتوقف إلا حين يقرّرون هم.

تركوا خلفهم كل شيء: البيت الصغير والساقية والغرفة الخلفية وفجوة الأرضية حيث كانت الأوراق القرآنية مخبّأة. لم تستطع أورسكا أن تحمل الأوراق معها، فالجنود كانوا يفتّشون الأمتعة. فأخذت تحفظها قبل الرحيل بأيام، تجلس في الليل وتقرأ الأوراق مرةً بعد مرة

وتطبع كل كلمة في ذاكرتها. ثم أحرقتها بيدها. أحرقتها وهي تبكي، لأنها كانت خطّ أبيها، وكانت آخر ما تبقّى من يده. لكنها قالت لنفسها: الورق يحترق والصدر لا يحترق.

كانت زينب قد تجاوزت السبعين حين بدأت المسيرة. جسدها الذي أنهكته السنوات والخوف والحزن لم يكن مهيّأً لهذا الطريق. في الأيام الأولى كانت تمشي متّكئة على ذراع أورسكا، تضع قدمًا أمام قدم ببطء، وأورسكا تسندها وتهمس لها: قليلًا يا أمّي، قليلًا وسنستريح. لكن زينب كانت تضعف يومًا بعد يوم. صار تنفّسها ثقيلًا ومشيها أبطأ وجسدها أخفّ كأن الريح تستطيع أن تحمله. كان لويس يحملها أحيانًا على ظهره حين يبتعد الجنود، لكن الطريق كان طويلًا والجبال لا ترحم.

في الليلة السابعة توقّفت القافلة للمبيت في سهلٍ مفتوح بين جبلين. كان البرد شديدًا. أسندت أورسكا أمّها إلى صخرةٍ كبيرة ولفّتها بكل ما عندها من قماش وأجلست أطفالها حولها ليدفئوها بأجسادهم. كانت زينب ترتجف. وجهها شاحبٌ كورقةٍ بيضاء وشفتاها زرقاوان وعيناها نصف مغمضتين. أمسكت يد أورسكا بأصابع باردة ضعيفة وقالت بصوتٍ لا يكاد يُسمع:

— أورسكا.

لم تقل مارية. قالت أورسكا. اسمها الحقيقي. هنا في هذا السهل المفتوح بعيدًا عن العيون والجدران، لم تعد بحاجة للقناع.

— أنا هنا يا أمّي.

— لا تنسي ما علّمتكِ.

— لن أنسى يا أمّي. أبدًا.

—— والأطفال... علّميهم كما علّمتكِ. لا تتركي السلسلة تنقطع يا بنتي.

—— لن تنقطع. أقسم لكِ.

ابتسمت زينب ابتسامةً خفيفة. ثم همست بشيء. اقتربت أورسكا بأذنها من شفتي أمّها لتسمع. كانت تقول الشهادة. بصوتٍ أوهن من نسمة. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله. تحرّكت شفتاها بالكلمات كما كانت تتحرّك طوال عمرها: بلا صوت تقريبًا. لكن هذه المرة لم يكن السبب خوفًا من محاكم التفتيش، بل لأن جسدها لم يعد فيه قوة لصوتٍ أعلى من هذا.

ظلّت أورسكا تمسك يد أمّها وتردّد معها. الشهادة ثم الإخلاص ثم الفاتحة. تقرآن معًا كما كانتا تقرآن كل ليلة في غرناطة، في الغرفة الخلفية خلف الصندوق الخشبي، حين كان العالم كلّه نائمًا ولا يسمعهما إلا الله. هنا أيضًا لا يسمعهما إلا الله. والنجوم فوقهما. والبرد. والأطفال النائمون.

ثم توقّفت شفتا زينب.

ولم تتحرّكا ثانية.

أمسكت أورسكا يد أمّها ولم تطلقها. جلست هكذا ساعاتٍ بجانب جسدها الساكن في ذلك السهل البارد بين الجبلين، تبكي بلا صوت. لم تصرخ. لم تنتحب. بكت كما تعلّمت أن تبكي: في صمت. دموعٌ تسقط على يد أمّها الباردة ولا صوت لها.

في الصباح حين أمر الجنود القافلة بالتحرّك، لم يسمحوا لأورسكا بأن تغسّل أمّها أو تكفّنها أو تحفر لها قبرًا لائقًا. لم يكن هناك وقت ولا إذن. فلفّتها بقطعة القماش التي كانت تتدفّأ بها، وحفر لويس بيديه حفرة ضحلة في الأرض بمساعدة رجلٍ موريسكي من القافلة، ووضعوا زينب فيها على جنبها الأيمن موجّهةً نحو القبلة بقدر ما استطاعوا أن

يقدّروا، وأهالوا عليها التراب. قبرٌ بلا اسم في سهلٍ بلا اسم بين جبلين لن تعرف أورسكا طريق العودة إليهما.

همست أورسكا على قبر أمّها بما تحفظ من القرآن. ثم وقفت ومسحت وجهها ونظرت إلى أطفالها الثلاثة الذين يقفون حولها بعيونٍ خائفة لا تفهم. حملت الصغرى على ذراعها وأمسكت يد الأوسط وقالت للأكبر: امشِ. وعادت إلى القافلة.

مشت وفي صدرها أمّها كلّها. كل كلمة قالتها وكل سورة علّمتها وكل دمعة ذرفتها وآخر ابتسامة ابتسمتها. حملتها كما حملت الأوراق القرآنية قبل أن تحرقها: في الصدر. لأن الصدر لا يحترق ولا يضيع.

وأكملت الطريق إلى لوغرونيو.

في لوغرونيو بدأت حياةٌ جديدة بنكهة الألم القديم نفسه.

وجد لويس عملًا في حدادةٍ على أطراف المدينة. وسكنوا في حيٍّ يقطنه بعض الموريسكيين المهجّرين مثلهم وبعض النصارى القدامى الذين نظروا إلى الوافدين الجدد بعيون الريبة والتوجّس. هنا كان الأمر أصعب من غرناطة. في غرناطة كان معظم الحيّ موريسكيًّا وكانت هناك حماية في العدد. أما في لوغرونيو فكانوا غرباء في أرضٍ غريبة، محاطين بنصارى لا يثقون بهم، ومحاكم تفتيش لا تقلّ شراسة عن تلك التي تركوها خلفهم.

لكن أورسكا واصلت ما بدأته. في البيت الجديد كان هناك المصلّى السري نفسه، والوضوء الحذر نفسه، والجمعة النظيفة نفسها، والماء الكثير نفسه، والأطفال الذين يتعلّمون القرآن همسًا قبل النوم نفسهم. لم يتغيّر شيء إلا المكان. أما الجوهر فظلّ ثابتًا كأنه محفور في صخر.

ثم مات لويس.

مات في سنة 1578م، بعد سبع سنوات من المرض البطيء. كان قد ضعف جسده وأعياه السعال وصار يقضي أيامه في الفراش. وكانت أورسكا هي التي تعمل وتطبخ وتعلّم الأطفال وتعتني بزوجها المريض وتصلّي في الليل وتدعو الله أن يرحمه. حين مات، غسلته سرًّا كما غسلت أمّها نانا حورية من قبل، ولفّت جسده بقماشةٍ بيضاء تحت ثيابه، وقرأت عليه ما تحفظ من القرآن بصوتٍ أخفض من الدموع. ثم سلّمته للكنيسة ومشت خلف نعشه في صمت، وحين عادت إلى البيت أغلقت الباب وسجدت وبكت حتى ظنّت أنها لن تقوم.

لكنها قامت.

قامت لأن أطفالها كانوا ينظرون إليها، ولأن أمّها زينب كانت قد ماتت في الطريق إلى لوغرونيو ولم يبقَ لهؤلاء الأطفال أحدٌ غيرها، ولأنها حملت العهد الذي حملته أمّها عن جدّتها عن جدّات قبلها: أنتِ الحارسة. أنتِ الجدار الأخير. إن سقطتِ سقط كل شيء.

وهكذا صارت أورسكا، وهي في الخامسة والأربعين، أرملةً وحيدة في مدينةٍ غريبة، مسلمةً في زيّ نصرانية، أمًّا وأبًا ومعلمة وإمامًا وحافظة لسرٍّ يكفي لأن يقتلها عشر مرات.

وصار الماء الذي لا يتوقف عن دخول بيتها ينتظر من يلاحظه.

الفصل الثالث

المعلّمة

بعد موت لويس تغيّر شيءٌ في أورسكا.

لم يكن التغيير في ملامحها أو في طريقة مشيها أو كلامها. كان شيئًا أعمق من ذلك، شيئًا في عينيها. صار في عينيها نظرةٌ لم تكن موجودة من قبل، نظرة امرأةٍ أدركت أنها لم تعد تملك ترف الضعف. كانت قبل موت لويس زوجةً تحمل نصف الحِمل، أما الآن فقد صار الحمل كلّه على كتفيها وحدها: الأطفال وأرزاقهم وتعليمهم وحمايتهم وسرّهم الذي لو انكشف لأُحرقوا جميعًا.

كانت قد تجاوزت الخامسة والأربعين. امرأةٌ نحيلة أنهكتها السنوات والخوف والعمل والترحيل، شعرها بدأ يخالطه البياض، ويداها خشنتان من غسل الثياب والعجين والماء الذي لا يتوقف. لكن في هذا الجسد المتعب كانت تسكن إرادةٌ لو قُسمت على جبلٍ لتصدّع. وكانت تعرف أن الله لا يكلّف نفسًا إلا وسعها، وكانت تتلو هذه الآية كل ليلة كأنها تذكّر نفسها بأن ما تحمله ليس أكبر منها وإن بدا كذلك.

كان أكبر أبنائها قد صار شابًّا في العشرين. والأوسط في السابعة عشرة. والصغرى بنتٌ في الرابعة عشرة. ثلاثة أبناء كبروا في عالم القناع نفسه الذي كبرت فيه أمّهم، وحملوا الاسمين نفسيهما، واحدًا للنهار وواحدًا لليل. لكن أورسكا كانت تعرف أن الخطر مع الأبناء الكبار أعظم منه مع الصغار. الطفل الصغير يطيع أمّه دون أن يسأل كثيرًا. أما الشاب فيخرج إلى العالم ويختلط بالناس ويسمع كلامًا آخر ويرى حياةً أخرى، وقد يتساءل: لماذا أعيش هذه الحياة المزدوجة؟ لماذا لا أكون مثل الآخرين وأرتاح؟

كان ابنها الأكبر هو الذي قال لها ذات مساء ما كانت تخشى أن تسمعه:

— أمّي، أنا تعبت.

نظرت إليه ولم تقل شيئًا. فأكمل:

—— تعبت من الخوف. تعبت من أن أعيش حياتين. أصدقائي في العمل يشربون الخمر ويضحكون ولا يخافون من أحد. وأنا أعود إلى البيت وأتوضّأ في الظلام وأصلّي وأنا أرتجف. لماذا يا أمّي؟ لماذا نعذّب أنفسنا؟ جدّي مات وهو يصلّي سرًّا ولم يتغيّر شيء. أبي مات وهو يصلّي سرًّا ولم يتغيّر شيء. ماذا ننتظر؟

صمتت أورسكا طويلًا. كان الصمت أثقل من أي كلام. ثم قالت بصوتٍ هادئ لكنّ فيه شيئًا لا يُكسر:

—— اسمع يا ولدي. أنا لن أكذب عليك وأقول لك إن شيئًا سيتغيّر غدًا أو بعد غد. لا أعرف. ربما لن يتغيّر شيء في حياتنا كلّها. ربما سنموت كما مات أبوك وجدّك ونحن نصلّي في الظلام. لكن اسمع هذا جيدًا.

اقتربت منه ووضعت يدها على صدره.

—— هذا الذي هنا، هذا الذي ينبض، هم يريدونه. يريدون أن يدخلوا إلى هنا ويمحوا منه كل شيء ويكتبوا مكانه ما يريدون هم. وأنت حين تتوضّأ في الظلام وتصلّي وأنت ترتجف، أنت لا تعذّب نفسك يا ابني. أنت تقاتل. تقاتل أصعب قتال في الدنيا. لأنك تقول لهم بكل ركعة: أنتم أقوياء وأنا ضعيف، لكن هذا المكان لا تدخلونه.

لم يجب الابن. جلس طويلًا ينظر إلى الأرض. ثم رفع رأسه وعيناه تلمعان وقال:

—— علّميني آية الكرسي مرة أخرى يا أمّي. أظنني نسيت بعض كلماتها.

ابتسمت أورسكا لأول مرة منذ أسابيع.

لم تكن أورسكا تعلّم أبناءها فقط.

بعد موت لويس، بدأت تلاحظ شيئًا في الحيّ أقلقها. كان هناك عائلات موريسكية أخرى مهجّرة مثلهم، لكن كثيرًا منها بدأ يفقد ما تبقّى من دينه. لم يكن الأمر أنهم اختاروا التنصّر عن قناعة، بل كان الأمر أبسط وأخطر من ذلك: النسيان. جيلٌ كامل كبر دون أن يسمع أذانًا أو يرى مسجدًا أو يقرأ كلمة عربية. أمّهات ماتت قبل أن تنقل ما عندها. آباء اعتُقلوا أو أُحرقوا فانقطعت السلسلة. وأطفال ولدوا ولا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، إن عرفوه أصلًا. كان المحو يشتغل ببطء وثبات، كماءٍ يأكل صخرًا، وكان ينجح.

رأت أورسكا نساءً موريسكيات يأكلن لحم الخنزير بلا تحفّظ لأنهن لم يعد يعرفن أنه حرام. ورأت رجالًا يشربون الخمر بلا وخزة ضمير لأن آباءهم لم يعلّموهم. ورأت أطفالًا يلعبون في الأزقة ويتصارعون ويقلّدون القسّيس في القدّاس بإتقانٍ مخيف، لا يعرفون أن أجدادهم كانوا يركعون في اتجاهٍ آخر. كان المشهد يقطع قلبها. لأنها كانت ترى بعينيها ما أراده سيسنيروس حين أحرق الكتب: لم يكن يحرق ورقًا، كان يحرق ذاكرة. وها هي الذاكرة تحترق فعلًا، ليس بالنار هذه المرة، بل بما هو أشدّ من النار: النسيان.

فقرّرت أن تفعل شيئًا.

لم يكن قرارًا واحدًا كبيرًا اتّخذته في لحظةٍ بعينها. كان شيئًا نما فيها ببطء، كبذرةٍ في تربةٍ مظلمة. بدأت بجارتها القريبة، امرأةٍ موريسكية أرملة مثلها، اسمها في السجلات إيلينا، لكن أورسكا كانت تعرف أن اسمها الحقيقي فاطمة. كانت فاطمة قد فقدت أمّها صغيرة ولم تتعلّم من الدين إلا الشهادة والبسملة. أورسكا بدأت تزورها. ليس زيارات ملفتة، بل زيارات عادية كزيارات الجارات: تأخذ لها طعامًا أو تستعير منها شيئًا أو تجلس معها تغزلان الصوف وتتحدّثان. لكن بين كلمة وكلمة، وبين خيطٍ وخيط، كانت أورسكا تزرع. تقول لها: هل تعرفين أن اليوم جمعة؟ فتقول فاطمة: وماذا في الجمعة؟ فتقول أورسكا: كان

أجدادنا يغتسلون فيها ويلبسون أحسن ثيابهم ويصلّون الجمعة بعد الخطبة والآن علينا أن نصليها ظهرًا. هل تريدين أن أعلّمكِ كيف تتوضّئين؟

هكذا. بهذه البساطة. بلا خطب ولا مواعظ ولا كلام كبير. مجرد امرأة تجلس مع امرأة أخرى وتذكّرها بما نسيت. وكانت فاطمة تسمع بعينين واسعتين، كأنها تسمع شيئًا كانت تعرفه في عمقها لكنها لم تجد من يوقظه.

ثم جاء رمضان.

كان ذلك في سنة 1584م تقريبًا، قبل الكارثة بسنةٍ واحدة. أورسكا في الحادية والخمسين، شعرها صار أبيض كلّه، وظهرها بدأ ينحني كما انحنى ظهر نانا حورية قبلها. لكن روحها كانت أصلب ما تكون. كانت تحسب الأيام بطريقة حفظتها من جدّتها: تراقب القمر وتعدّ الليالي من شهرٍ لشهر حتى تعرف متى يدخل رمضان. لم يكن عندها تقويم هجري، فالتقاويم الإسلامية صودرت مع كل شيء. لكنها كانت تعرف القمر كما تعرف وجوه أبنائها.

حين تأكّدت من دخول الشهر، فعلت شيئًا أخطر مما كانت تفعله من قبل. لم تكتفِ بأن تصوم هي وأبناؤها في صمت كما كانت تفعل كل عام. بل خرجت إلى الحيّ.

لم تخرج علنًا بالطبع. لم تقف في الساحة وتنادي في الناس. بل فعلت ذلك بالطريقة التي تعلّمتها النساء الموريسكيات عبر عقود: الهمس. زارت فاطمة وهمست لها. وزارت جارة أخرى اسمها في السجلات آنا، موريسكية من عائلة غرناطية قديمة، وهمست لها. وقالت لهما ما قالته لأبنائها: رمضان دخل. تعرفون رمضان؟ الشهر الذي كان أجدادنا يصومونه. الشهر الذي أمرنا الله فيه بالصيام. هل تصومون معي؟

كانت الكلمات بسيطة. لكن أثرها كان كحجرٍ يُلقى في ماءٍ ساكن. فاطمة أخبرت قريبتها. وآنا أخبرت زوجة أخيها. وانتقل الهمس من بيتٍ إلى بيت، من أذنٍ إلى أذن، حتى صار في الحيّ بضع عائلات تصوم سرًّا. يمسكون قبل الفجر ويفطرون بعد المغرب، في بيوتهم المغلقة، خلف أبوابهم الموصدة. لا يعلم بهم أحد. أو هكذا ظنّوا.

كانت أورسكا تعلّمهم أحكام الصيام كما حفظتها: الإمساك عن الطعام والشراب من الفجر إلى المغرب. النيّة. الإفطار على تمرٍ إن وُجد أو على ماء. صلاة المغرب بعد الإفطار. وكانت تذكّرهم بالدعاء: «اللهم إني لك صمت وعلى رزقك أفطرت». كلمات بسيطة كان الناس يقولونها في غرناطة جهرًا في الشوارع، صارت الآن تُقال همسًا خلف الجدران وكأنها سرٌّ عسكري يُعاقب عليه بالموت.

وكان الصيام نفسه معركة يومية مع الأجساد والظروف. فالموريسكي الصائم عليه أن يعمل طوال النهار كأنه ليس صائمًا، وأن يأكل أمام زملائه النصارى إن قدّموا له طعامًا ظهرًا، وأن لا يبدو عليه الإرهاق أو الجوع لأن أي علامةٍ قد تثير السؤال. كان بعضهم يضع لقمةً في فمه ثم يبصقها حين لا يراه أحد. وكان بعضهم يضع طعامًا في صرّته ويخرجه مساءً كأنه يأكله للعشاء. حيلٌ صغيرة يائسة في حربٍ كبيرة لا ترحم.

لكن الليالي كانت لهم. كانت أورسكا تجمع أبناءها بعد الإفطار وتقرأ لهم ما تحفظ من القرآن. صوتها الخفيض في الغرفة المعتمة، ونور الشمعة الوحيدة، ووجوه أبنائها المتّجهة إليها، كلّ ذلك كان يذكّرها بليالي نانا حورية قرب الموقد في غرناطة. الزمن تغيّر والمكان تغيّر لكن المشهد هو المشهد: امرأة تنقل ما في صدرها إلى صدورٍ أصغر، لأن هذا هو كل ما تستطيعه، وهو كل ما يهمّ.

لم تكن أورسكا تعرف أن بين الآذان التي تسمعها كلماتها أذنًا واحدة ستقتلها.

كانت تثق بمن حولها، لأنهم موريسكيون مثلها، يحملون الألم نفسه والسرّ نفسه والاسمين نفسيهما. لكنها نسيت أو تناست أن الخوف يفعل بالناس أشياءً لا تفعلها الكراهية.

الخوف يحوّل الأخ إلى غريب والجار إلى عدو والصديق إلى واشٍ. ومحاكم التفتيش كانت تعرف هذا وتلعب عليه بإتقانٍ شيطاني. كانت تُشيع أن من يُبلّغ عن جاره المسلم سرًّا يُكافأ ويُحمى. وأن من يُضبط وهو يعرف عن جاره ولم يُبلّغ يُعاقب عقوبة الجار نفسها.

فصار كل إنسان يراقب جاره لا بدافع الحقد بل بدافع الرعب. رعبٌ يأكل رعبًا يأكل رعبًا، سلسلة لا تنتهي صمّمها قومٌ أتقنوا صناعة الجحيم على الأرض.

في مكانٍ ما من هذه السلسلة، سمع أحدهم أورسكا وهي تذكّر جارتها بالصيام. أو ربما رآها تدخل بيتًا وتخرج منه وبدأ يربط بين الزيارات وبين دخول رمضان. أو ربما لاحظ أنها وجاراتها لا يأكلن في النهار ويبدأن بالطبخ مع غروب الشمس. لا نعرف بالضبط ما الذي رآه أو سمعه. لا نعرف من كان. لكننا نعرف ما فعله.

مشى في ليلةٍ باردة إلى باب محكمة التفتيش في لوغرونيو.

ودقّ الباب.

الفصل الرابع

الواشي

لا نعرف اسمه.

الأرشيف لم يحفظ اسم الواشي. حفظ اسم الضحية بكل تفاصيله، حفظ تهمتها وسنّها وزوجها المتوفّى ومكان سكنها وطريقة إعدامها، لكنه لم يحفظ اسم الذي أوصلها إلى كل ذلك. ربما لأن محاكم التفتيش كانت تحمي مخبريها كما يحمي الصيّاد كلابه، فلا تكتب أسماءهم في السجلات المفتوحة خوفًا من الانتقام. أو ربما لأن التاريخ نفسه استحى أن يحفظ هذا الاسم بجانب اسمها. لكنه كان موجودًا. كان إنسانًا من لحمٍ ودم، يمشي على قدمين ويأكل ويشرب وينام، وفي ليلةٍ من ليالي سنة 1585م اتّخذ قرارًا قتل به امرأة.

من كان؟

ربما كان موريسكيًّا مثلها. هذا هو الاحتمال الأرجح والأشدّ إيلامًا. موريسكيٌّ سمع بأمر الصيام وعرف من يصوم ومن يعلّم، لكنه لم يحتمل ثقل السرّ. ربما كان رجلًا اعتُقل من قبل وعُذّب في أقبية المحكمة حتى انكسر شيءٌ في داخله لا يُرمَّم، فصار يُبلّغ عن كل شيء يسمعه ليحمي نفسه. كان هذا شائعًا بين الموريسكيين أكثر مما يحبّ أحدٌ أن يعترف. محاكم التفتيش لم تكن تحتاج إلى جواسيس نصارى لاصطياد المسلمين السرّيين، كانت تصنع جواسيسها من المسلمين أنفسهم. تعتقل رجلًا وتعذّبه وتُريه الموت ثم تطلقه بشرطٍ واحد: أن يصير عيونها في الحيّ. فيخرج من القبو ميتًا من الداخل حيًّا من الخارج، يمشي بين أهله وهو يعدّ أنفاسهم ويحصي كلماتهم ويبيعها بثمن بقائه.

أو ربما كان الواشي جارًا نصرانيًّا لاحظ ما لاحظه ونقله بحسن نيّة أو بسوئها. ربما كان الرجل الذي يسكن مقابل بيت أورسكا ويرى الماء الكثير يدخل ولا يخرج، ويشمّ رائحة الطبخ مع المغرب في رمضان، ويلاحظ أن هذه المرأة ونساءً أخريات يتزاورن بشكلٍ غريب في أوقاتٍ غريبة. ربما لم يكن يعرف حتى ماذا يعني كل ذلك بالضبط، لكنه عرف أنه ليس طبيعيًّا، وأن محكمة التفتيش تدفع مقابل هذا النوع من المعلومات. ليس بالمال دائمًا، بل

أحيانًا بما هو أثمن: الحماية. لأن الحياة بجوار محكمة التفتيش كانت بسيطة القواعد: إمّا أن تكون عينًا لها أو أن تكون فريسة. والأغلبية اختارت أن تكون عيونًا.

أو ربما كان الدافع أحقر من كل ذلك. ربما كان رجلًا يطمع في بيتها أو في أرضٍ صغيرة تملكها أو في ديْنٍ لم تسدّده. كانت أملاك المحكوم عليهم من محاكم التفتيش تُصادر، وكان الواشون أحيانًا يحصلون على نصيبٍ منها مكافأةً لهم. فكم من بيتٍ سُرق بوشاية، وكم من أرضٍ انتقلت ملكيتها بكلمةٍ واحدة في أذن راهب.

لا نعرف أيّ هذه الاحتمالات هو الصحيح. وربما كان الصحيح شيئًا آخر لم يخطر على بال. لكن النتيجة واحدة: في ليلةٍ باردة من ليالي مطلع سنة 1585م، وقف رجلٌ أمام باب محكمة التفتيش في لوغرونيو وطرقه.

محكمة التفتيش في لوغرونيو لم تكن مبنًى عاديًّا. كانت قلعةً من الرعب يعرفها كل ساكنٍ في المدينة ويتجنّب المرور بجوارها إن استطاع. مبنًى حجري ضخم بجدرانٍ سميكة ونوافذ ضيقة كعيون مريبة، وباب من خشبٍ ثقيل مسمّر بالحديد. خلف ذلك الباب كانت قاعات التحقيق وغرف الحبس وأقبية التعذيب التي دخلها كثيرون ولم يخرج منها إلا قليلون، والذين خرجوا لم يكونوا هم أنفسهم الذين دخلوا.

حين دقّ الواشي الباب فُتحت له طاقةٌ صغيرة في الخشب ونظرت إليه عينان لا ملامح لهما. سأله صوتٌ من الداخل عن غرضه. فقال إنه جاء ليبلّغ عن أمرٍ يخصّ الإيمان.

كانت هذه هي العبارة السحرية التي تفتح كل الأبواب. فانفتح الباب الثقيل ودخل الرجل إلى الداخل واختفى كما تختفي الحجرة في بئر.

لا نعرف كم مكث في الداخل. ربما ساعة. ربما أقلّ. لكننا نعرف ما قاله لأنه مسجّلٌ في الأرشيف بالخلاصة: أخبرهم أن امرأةً تُدعى مارية كليمنتي، أرملة لويس دي مدينا، من الموريسكيين المهجّرين من غرناطة، تقوم مع دخول شهر رمضان بتذكير بعض الناس سرًّا بفرائض دينهم وتحثّهم على الصيام. قال إنه سمعها بنفسه. وقال إنهم استجابوا لها ويصومون في بيوتهم.

كلماتٌ قليلة. جمل قصيرة. لكنها كانت كافية لإشعال آلةٍ لا تتوقف حتى تطحن كل ما أمامها.

بدأ التحقيق بالمراقبة.

لم يكن ذلك من إنصافٍ ولا من حرصٍ على العدل. فمحاكم التفتيش لا تعرف العدل ولم تُبنَ عليه يومًا. لكن المحكمة كانت قد تعلّمت من تجربتها المريرة أن كثيرًا من الوشايات التي تصلها كاذبة. فبعد عقودٍ من فتح أبوابها لكل واشٍ وقبول كل شكوى، اكتشفت أنها صنعت وحشًا لا تستطيع السيطرة عليه. جيرانٌ يشون بجيرانهم ليستولوا على بيوتهم. وتجّار يبلّغون عن منافسيهم لإزاحتهم من السوق. وأزواج يتخلّصون من زوجاتهم بكلمةٍ في أذن راهب. وورثة يستعجلون موت آبائهم بتهمة الردّة ليأخذوا الميراث. كان الحقد البشري والطمع والغيرة والثأر كلّها قد وجدت في محكمة التفتيش أداةً مجانية للقتل: تقول كلمة فيموت إنسان. وكانت المحكمة في سنواتها الأولى تُعدم بلا تحقّق، فأُحرق الآلاف بناءً على شكاوى لم يكن فيها ذرّة صدق، وإنما كان فيها طمعٌ في أرض أو انتقامٌ من خصومة قديمة أو رغبةٌ في إزاحة عقبة من الطريق. حتى صارت المحكمة نفسها تشكّ في مخبريها، لا شفقةً

على الأبرياء بل خوفًا على مصداقيتها التي بدأت تتآكل. فصارت تراقب قبل أن تعتقل، لا لتتأكد من براءة المتّهم بل لتتأكد من أن الواشي لا يكذب عليها هي.

وهكذا أرسلت عيونها لمراقبة بيت مارية كليمنتي. لم يكونوا جنودًا بزيٍّ رسمي يقفون أمام الباب، بل كانوا أشباحًا. جارٌ مأمور بالمراقبة. أو بائع متجوّل يمرّ أمام البيت كل يوم في الوقت نفسه ويلاحظ. أو خادمة في بيتٍ مجاور تسترق السمع. شبكة من العيون الخفية لا تُرى لكنها ترى كل شيء.

وما رأته هذه العيون أكّد ما قاله الواشي وزاد عليه.

رأت أن هذه المرأة تغتسل باستمرار. ليس غسل الاستحمام العادي الذي يفعله الناس مرة في الأسبوع أو أقلّ، بل غسلٌ يومي متكرّر بطريقةٍ لها نظام: الوجه أولًا ثم اليدان ثم الرأس ثم القدمان. وضوء. حتى لو لم يعرف الجاسوس اسمه، فإن وصفه كان كافيًا لمن يعرف.

ورأت أن يوم الجمعة في بيتها يختلف عن بقية الأيام. تلبس أنظف ثيابها وتُلبس أطفالها. تنظّف البيت تنظيفًا خاصًّا. تطبخ طعامًا أفضل من المعتاد. كل ذلك في يوم الجمعة تحديدًا، لا في يوم الأحد الذي يفترض أن يكون يومها المقدّس كنصرانية.

ورأت أن الماء يدخل بيتها بكمياتٍ لا تتناسب مع حجم البيت ولا مع عدد سكّانه. ماءٌ كثير، كثير جدًّا، في بيت أرملة فقيرة لا حديقة لها ولا حيوانات. الماء الذي كان يُقلق لويس قبل عشرين سنة في غرناطة عاد ليكون الشاهد الأخطر في لوغرونيو.

ورأت أنها لا تأكل لحم الخنزير. لاحظ المراقبون أنها تشتري اللحم من الجزّار لكنها لا تشتري إلا الضأن والدجاج. وأن قطعة الخنزير المعلّقة في مطبخها لا تتغيّر، تجفّ وتتحجّر ولا يبدو أن أحدًا يقطع منها شيئًا.

ولاحظوا أن بيتها لا خمر فيه. في مدينةٍ يشرب أهلها النبيذ مع كل وجبة تقريبًا، كان بيتها جافًّا من الخمر كأنه بيتٌ في صحراء.

كل واحدة من هذه العلامات لم تكن دليلًا قاطعًا بمفردها. فقد يمتنع إنسان عن الخنزير لمرض في معدته، وقد يكثر من الماء لأنه يغسل ثيابًا أو يعتني بجلده، وقد لا يشرب الخمر لأنه لا يحبّ طعمه. لكن حين تجتمع كلّها في شخصٍ واحد، في بيتٍ واحد، مع شهادة الواشي، تصير صورةً لا يمكن تأويلها إلا بمعنى واحد: هذه المرأة مسلمة.

وفي عالم محاكم التفتيش، هذا وحده كان حكمًا بالموت.

جاؤوا لها في الصباح.

لم يأتوا في الليل كما يتخيّل المرء. جاؤوا في وضح النهار، أمام عيون الجيران، لأن محاكم التفتيش كانت تريد للناس أن تراهم وهم يأخذون فريستهم. كان هذا جزءًا من اللعبة: الرعب العلني. حين يرى الجيران الجنود يدخلون بيتًا ويخرجون بساكنيه مقيّدين، يتعلّم كل جارٍ الدرس دون أن يُقال له: أنت التالي إن لم تكن حذرًا. أنت التالي إن لم تُبلّغ عمّن حولك. أنت التالي.

كانت أورسكا في بيتها حين سمعت الطرق على الباب. لم يكن طرقًا عاديًّا. كان طرقًا ثقيلًا متّصلًا لا يطرقه إلا من لا يحتاج إذنًا بالدخول. عرفت قبل أن تفتح. عرفت من

إيقاع الطرق ومن الصوت الذي جاء بعده يأمرها بالفتح باسم المحكمة المقدّسة. عرفت أن اللحظة التي عاشت عمرها كلّه تخافها قد جاءت أخيرًا.

ماذا فعلت في تلك الثواني القليلة بين سماع الطرق وفتح الباب؟

لا نعرف. لكن يمكننا أن نتخيّل. ربما نظرت إلى أبنائها نظرةً أخيرة. ربما همست بالشهادة. ربما تذكّرت وجه أمّها وهي تعلّمها الإخلاص، ووجه نانا حورية وهي تضع يدها على صدرها وتقول: ما دام هذا ينبض بلا إله إلا الله فالأندلس لم تسقط. ربما لم تفعل شيئًا من ذلك. ربما وقفت فقط ونظرت إلى الباب الذي يهتزّ تحت الطرقات وشعرت بسكينةٍ غريبة لا تفسير لها، سكينة من أدرك أن الخوف الذي حمله طوال عمره لم يعد له معنى لأن أسوأ ما كان يخافه صار واقعًا.

فتحت الباب.

دخل رجلان ومعهما جنديّ. أحد الرجلين كان يحمل ورقةً مختومة. قال لها بصوتٍ لا حرارة فيه ولا برودة، صوت موظّف يؤدّي عمله اليومي:

أنتِ مارية كليمنتي، أرملة لويس دي مدينا؟

قالت: نعم.

قال: بأمر المحكمة المقدّسة لديوان التفتيش في لوغرونيو، أنتِ موقوفة بتهمة الردّة والتهوّد والرجوع إلى شريعة محمد.

شريعة محمد. هكذا كانوا يسمّونها. كأن محمدًا صلى الله عليه وسلم جريمة. كأن شريعته تهمة. كأن الإيمان بالله الواحد الذي لم يلد ولم يُولد خيانة تستحقّ الموت.

أخذوها من بيتها. لم تقاوم. لم تصرخ. لم تبكِ أمامهم. مشت بينهم في الشارع الضيّق ووجهها هادئ كوجه من سلّم أمره لله ولم يعد ينتظر من البشر شيئًا. والجيران يتفرّجون من

النوافذ والأبواب، بعضهم بخوف وبعضهم بشماتة وبعضهم بعيونٍ مطأطأة لا تقوى على النظر.

وأبناؤها يقفون عند الباب يرونها تبتعد.

لم تلتفت إليهم. ربما لأنها لو التفتت لانكسرت. وهي لم تكن تنوي أن تنكسر. ليس الآن. ليس أمامهم.

مشت حتى غابت عن أعينهم في منعطف الشارع.

ولم يرَوها ثانيةً.

الفصل الخامس

التحقيق

أُدخلت أورسكا من بابٍ جانبي في مبنى المحكمة.

لم تدخل من الباب الكبير الذي يدخل منه القضاة والرهبان والزوّار. كان للمتّهمين بابٌ آخر، ضيّق ومنخفض، يُجبر الداخل على أن يحني رأسه ليعبر، كأنهم أرادوا أن يبدأ الإذلال من الخطوة الأولى. عبرت أورسكا هذا الباب ومشت في ممرٍّ مظلم تفوح منه رائحة الحجر الرطب والعفن وشيءٌ آخر حلو ثقيل لم تعرف ما هو في البداية، ثم أدركت أنه رائحة الخوف المتراكم في هذه الجدران منذ عقود. خوف المئات الذين مرّوا من هنا قبلها، تشرّبته الحجارة حتى صار جزءًا منها.

أنزلوها درجاتٍ إلى قبوٍ تحت الأرض. زنزانة صغيرة بلا نافذة، فيها حصيرة متّسخة على الأرض ودلوٌ في الزاوية وباب حديدي ثقيل. أدخلوها وأغلقوا الباب خلفها. وصارت وحدها.

لا نعرف كم يومًا أمضت في ذلك القبو قبل أن يبدأ التحقيق. كانت محاكم التفتيش تتعمّد ترك المتّهم وحيدًا في الظلام أيامًا أو أسابيع قبل أن تستجوبه. كان هذا جزءًا من المنهج: أن تتركه يتخيّل ما ينتظره، لأن الخيال أحيانًا أشدّ من الحقيقة. في ذلك الظلام لا يعرف المتّهم الليل من النهار، ولا يسمع إلا خطوات السجّان تقترب وتبتعد، ولا يأكل إلا خبزًا يابسًا وماءً. يبدأ العقل يتآكل ببطء. يبدأ الإنسان يتحدّث إلى نفسه ثم إلى الجدران ثم إلى الظلام. وحين يُستدعى أخيرًا للتحقيق يكون قد صار طينًا ليّنًا يشكّلونه كما يريدون.

لكن أورسكا لم تكن وحدها في ذلك القبو.

كانت معها كل ليلةٍ قضتها في حضن أمّها تتعلّم الإخلاص. وكل قصةٍ حكتها نانا حورية عن مساجد غرناطة. وكل سجدة سجدها أبوها في الظلام والدموع على خدّيه. وكل حرفٍ من القرآن حفظته وعلّمته لأبنائها. كل ذلك كان معها في الزنزانة. لم تكن تستطيع أن تصلّي قائمةً لأنها لا تعرف اتجاه القبلة في هذا القبو المغلق، لكنها كانت تصلّي جالسة أو مستلقية، تقرأ ما تحفظ وتدعو بما تستطيع. كانت تعرف أن الله يقبل صلاة الخائف أينما كان وكيفما كان. قالت لها أمّها ذلك ذات ليلة قبل أربعين سنة. وها هي تختبر صدق تلك الكلمات في أحلك مكانٍ عرفته.

ثم جاء يوم التحقيق.

فُتح باب الزنزانة ودخل سجّانٌ أمرها بالخروج. مشت خلفه في الممرّ المظلم ثم صعدت درجاتٍ حتى وصلت إلى قاعة. كانت القاعة كبيرة مقارنة بالزنزانة، لكنها كانت مظلمة أيضًا، إلا من نوافذ عالية ضيّقة يدخل منها شيءٌ من الضوء. وفي صدر القاعة كانت هناك منصّة مرتفعة خلفها طاولة طويلة، وخلف الطاولة جلس ثلاثة رجال.

كانوا يرتدون أردية سوداء. واحدٌ منهم كان المحقّق الرئيسي، كاهنٌ نحيل الوجه حادّ الملامح، عيناه صغيرتان كعينَي طائرٍ جارح. وإلى يمينه كان المدّعي الذي يقرأ التهم. وإلى يساره كان كاتبٌ يجلس بقلمه وأوراقه يسجّل كل كلمة تُقال. ثلاثة رجال يقرّرون مصير امرأة. ثلاثة رجال يملكون أن يحرقوها حيّة أو يعفوا عنها إن تراجعت عن دينها واعتنقت دينهم بصدق.

أُجلست أورسكا على كرسيٍّ خشبي أمام المنصّة. وحدها. لا محامي ولا شاهد دفاع ولا أحد يقف بجانبها. هكذا كانت محاكم التفتيش: المتّهم وحده أمام الآلة. والآلة لا تعرف الرحمة.

بدأ المدّعي بقراءة التهم. كان يقرأ من ورقة بصوتٍ رتيب كأنه يقرأ قائمة مشتريات:

إن المتّهمة مارية كليمنتي، أرملة لويس دي مدينا، من الموريسكيين المنتقلين من مملكة غرناطة، متّهمة بالردّة عن الإيمان المقدّس والعودة إلى شريعة المحمّديين. وبناءً على شهادة الشهود والمراقبة، فإنها: أولًا، كانت تذكّر أشخاصًا بفريضة الصيام في شهر رمضان المحمّدي وتحثّهم على أدائها. ثانيًا، كانت تربّي أبناءها على تعاليم الشريعة المحمّدية وتحفّظهم نصوصًا من كتابهم. ثالثًا، كانت تغتسل بشكلٍ متكرّر وبطريقة تتوافق مع طقوس الطهارة المحمّدية. رابعًا، كانت تخصّ يوم الجمعة بعناية ونظافة على خلاف يوم الأحد المقدّس. خامسًا، كانت تمتنع عن أكل لحم الخنزير وعن شرب الخمر.

سكت المدّعي ورفع عينيه إليها.

ثم تكلّم المحقّق. نظر إليها نظرةً طويلة قبل أن يفتح فمه، كأنه يزنها بعينيه ليعرف من أي نوعٍ هي: من النوع الذي ينهار بسرعة أم من النوع الذي يحتاج وقتًا. ثم قال:

— مارية كليمنتي. سمعتِ ما نُسب إليكِ. المحكمة المقدّسة تمنحكِ فرصة للردّ. هل تنكرين ما قيل؟

هذه كانت اللحظة. اللحظة التي ينكسر فيها أغلب الناس. لأن الإنكار يعني فرصة للنجاة، وإن كانت ضعيفة. يستطيع المتّهم أن يقول: كل ذلك كذب، أنا نصرانية مؤمنة، الشهود يكذبون، اسألوا القسّيس عنّي. ويستطيع أن يبكي ويتوسّل ويقبّل الصليب أمامهم ويُقسم بالعذراء وجميع القدّيسين أنه بريء. وكان بعض المحقّقين يقبلون ذلك، خاصةً إن

كان المتّهم مستعدًّا لأن يُسمّي آخرين ويدلّ على موريسكيين غيره. كان الاعتراف بأسماء الآخرين هو العملة التي تشتري بها حياتك في محاكم التفتيش. تُعطيهم رأسًا مقابل رأسك. كان الإنكار والوشاية بالآخرين هو الباب المفتوح أمام أورسكا.

لكنها لم تدخل منه.

ما الذي جعلها تختار ما اختارته؟

يمكن للعقل البارد أن يقول إنها حسبت حساباتها وأدركت أن الأدلة ضدّها قوية جدًّا وأن الإنكار لن ينفعها. وهذا ممكن. فالمراقبة كانت دقيقة والشهود موجودون والعلامات كلّها واضحة. لكن هذا التفسير لا يشرح لماذا لم تحاول حتى أن تنكر. لم تقل: نعم كنت أغتسل لكن بسبب مرضٍ جلدي. لم تقل: الخنزير يؤلم معدتي. لم تقل: الجمعة يوم تنظيف بيتي وليس لها علاقة بالدين. كان بإمكانها أن تقول أيًّا من ذلك. كان بإمكانها أن تشتري بعض الوقت. لكنها لم تفعل.

والتفسير الآخر أبسط وأعمق. وهو أن هذه المرأة التي عاشت اثنين وخمسين عامًا وهي تكذب كل يوم، تكذب على الجيران وعلى القسّيس وعلى السوق وعلى الشارع وعلى العالم كلّه، وجدت نفسها أخيرًا في مكانٍ لم يعد فيه للكذب معنى. ماتت أمّها وماتت جدّتها ومات أبوها ومات زوجها. وأبناؤها بعيدون عنها ولا تملك لهم شيئًا. والذي كانت تخبّئه طوال عمرها لم يعد مخبّأً. فلماذا تستمرّ في الكذب؟ لمن؟ لهؤلاء الثلاثة الجالسين خلف الطاولة بأرديتهم السوداء؟ لمحكمةٍ جعلت الإيمان بالله الواحد جريمة والوضوء دليل إدانة والصيام حكمًا بالإعدام؟

لقد سئمت الكذب. سئمت القناع. سئمت أن تكون مارية.

أرادت أن تموت وهي أورسكا.

نظرت إلى المحقّق. ثم قالت بصوتٍ ثابت لا يرتجف:

—— لا أنكر.

تحرّك قلم الكاتب على الورقة. نظر المحقّق إلى المدّعي ثم عاد إليها. لم يكن يتوقّع هذه السهولة. معظم المتّهمين يبكون ويتوسّلون وينكرون حتى لو كانت الأدلة أوضح من الشمس. هذه المرأة لم تفعل شيئًا من ذلك.

قال لها:

—— هل تقرّين بأنكِ كنتِ تمارسين شعائر شريعة المحمّديين؟

—— أنا مسلمة. أعبد الله وحده لا شريك له.

كتب الكاتب. صرير القلم على الورقة كان الصوت الوحيد في القاعة لثوانٍ طويلة.

—— هل تقرّين بأنكِ كنتِ تدعين أهلكِ وجيرانكِ إلى هذه الشريعة؟

—— أمرتهم بما أمر الله به. الصيام والصلاة والطهارة.

—— وأبناؤكِ؟ هل ربّيتِهم على هذا؟

—— ربّيتهم على دين الله. كما ربّتني أمّي. وكما ربّتها أمّها.

—— أتعلمين أن ما تقولينه اعتراف بالردّة عن الإيمان المقدّس؟ وأن عقوبة ذلك قد تكون الموت حرقًا؟

نظرت إليه نظرةً لم يفهمها. نظرة امرأةٍ تعرف بالضبط ما تقوله وتعرف ثمنه وقد حسبت الحساب قبل أن تفتح فمها. ثم قالت:

—— أعرف.

صمت المحقّق لحظة. ثم قال بنبرةٍ بدا فيها شيءٌ يشبه الحيرة أو ربما الانزعاج من هذا الثبات الذي لم يعتده:

—— المحكمة المقدّسة ترأف بالتائبين. إن تراجعتِ عن ضلالكِ واعترفتِ بالإيمان الحقّ وتعمّدتِ بصدق، فإن المحكمة قد تخفّف عنكِ.

كان هذا هو العرض الأخير. الباب الأخير قبل أن يُوصد كل شيء. تراجعي عن دينكِ وعيشي. قولي ما نريد سماعه وارجعي إلى أطفالكِ. خمس كلمات تنجيكِ: أنا نصرانية وأتوب إلى المسيح.

خمس كلمات مقابل حياتها.

لكن أورسكا لم تقلها.

لأنها لو قالتها لماتت حقًّا. ليس موت الجسد الذي كانت تعرف أنه قادم، بل موتٌ آخر أشدّ: موت كل شيء عاشت من أجله. لو قالت تلك الكلمات لكانت قد قالت لأمّها التي علّمتها الإخلاص في الظلام: كنتِ مخطئة. ولجدّتها التي وضعت يدها على صدرها وقالت ما دام هذا ينبض بلا إله إلا الله فالأندلس لم تسقط: كنتِ واهمة. ولأبيها الذي بكى وهو ساجد: كان بكاؤك عبثًا. ولأبنائها الذين علّمتهم القرآن همسًا: كنت أكذب عليكم. لو قالتها لكانت قد أحرقت كل شيء بنفسها، بلسانها، أحرقته أشدّ مما ستحرقه أي نار.

فقالت كلماتٍ أخرى.

—— لستُ على ضلال. أنا على دين الله الذي أُنزل على محمد. ولن أتراجع.

كتب الكاتب.

ثم أغلق المحقّق الملفّ.

أُعيدت إلى زنزانتها.

لا نعرف كم بقيت هناك بعد التحقيق. أسابيع ربما. ربما أكثر. كانت محاكم التفتيش لا تتعجّل في إصدار الأحكام. تترك المتّهم يتعفّن في القبو حتى يصدر القرار النهائي في جلسة خاصة يحضرها كبار رجال الدين والمسؤولين. وكان القرار في حالة أورسكا محسومًا قبل أن تُعقد الجلسة. فالمتّهمة اعترفت ولم تتراجع ورفضت التوبة. وفي قانون محاكم التفتيش كان هذا يعني شيئًا واحدًا: الاسترخاء إلى الذراع العلمانية. وهي العبارة المهذّبة التي كانت تعني تسليم المتّهم إلى السلطة المدنية لتنفيذ حكم الحرق. لأن رجال الدين كانوا يأنفون من أن يقتلوا بأيديهم، فيحكمون بالموت ثم يغسلون أيديهم ويقولون: نحن لم نقتل أحدًا، سلّمناه للدولة وهي التي نفّذت.

صدر الحكم: الحرق حيّة في حفلٍ عام.

حفلٌ عام. هكذا كانوا يسمّونه. كأن إحراق إنسان حيّ احتفال. كأن رائحة اللحم المشتعل موسيقى. كأن صراخ المحتضر أهازيج.

حُدّد الموعد: الثاني والعشرون من يوليو سنة 1585م.

وبدأ العدّ العكسي.

في تلك الأيام الأخيرة في الزنزانة، لا نعرف ماذا فعلت أورسكا. لا الأرشيف يقول ولا الباحثة فيدال تذكر. لكننا نعرف أنها كانت امرأةً حفظت القرآن همسًا طوال عمرها. ونعرف أنها كانت تصلّي في الظلام منذ كانت طفلة. ونعرف أنها واجهت المحقّق بثباتٍ لم

يتزعزع. فليس من الصعب أن نتخيّل أنها أمضت تلك الأيام كما أمضت عمرها: تصلّي وتتلو وتدعو.

ربما تلت كل ما تحفظ مرّاتٍ ومرّات. الفاتحة والإخلاص والناس والفلق وآية الكرسي وما بقي في صدرها من كلام الله. ربما كرّرتها حتى صارت الكلمات تسري في دمها لا في لسانها فقط. ربما دعت لأبنائها أن يحفظهم الله ويثبّتهم ولا ينسوا ما علّمتهم. وربما دعت لنفسها دعاءً واحدًا بسيطًا: أن يثبّتها الله عند الحرق فلا تصرخ ولا تتراجع ولا تقول كلمةً تُسقط كل ما بنته.

ربما تذكّرت في تلك الليالي سمّية بنت خياط. أول شهيدة في الإسلام. المرأة التي طعنها أبو جهل بحربته لأنها رفضت أن تكفر. ربما حكت لها جدّتها تلك القصة ذات ليلة عند الموقد في غرناطة. وربما قالت أورسكا لنفسها في ذلك القبو: أنا لست أول امرأة تموت على هذا الدين. ولن أكون الأخيرة. وهذا يكفي.

الفصل السادس

الثاني والعشرون من يوليو

طلع فجر ذلك اليوم كأي فجرٍ آخر.

الشمس لم تتأخّر ولم تحتجب. والطيور غرّدت كعادتها فوق أسطح لوغرونيو. والنسوة خرجن إلى السوق باكرًا لشراء الخبز والخضار. والأطفال لعبوا في الأزقّة الضيّقة. يومٌ عادي في مدينةٍ عادية في شمال قشتالة، إلا أن في ساحتها الكبرى كان ثمة عمودٌ خشبي لم يكن موجودًا بالأمس.

نُصب العمود في الليل. جاء عمّال وحفروا له حفرةً في وسط الساحة وأنزلوه فيها وثبّتوه بالحجارة والتراب. عمودٌ من خشب البلّوط، سميك وطويل، مدقوقٌ في رأسه حلقة حديدية تتدلّى منها سلسلة. وحول قاعدته رُصّت حزم الحطب بعنايةٍ كأن من رصّها يبني شيئًا لا يهدم شيئًا. حطبٌ جاف يابس يشتعل بسرعة. ثم فوق الحطب طبقة من القشّ لتسهيل الاشتعال. كل ذلك أُعدّ بدقّةٍ وبرود كأنه تحضيرٌ لوليمة لا لقتل إنسان.

في الصباح بدأ الناس يتجمّعون.

لم يكن الحضور اختياريًّا بالكامل. كانت محاكم التفتيش تُعلن عن حفلات الإعدام قبلها بأيام، ويُنادى في الأسواق والكنائس أن على الناس أن يحضروا ليشهدوا عدالة الله وانتصار الإيمان الحقّ. وكان الغياب نفسه قد يُلاحظ ويُسجّل، فمن لا يحضر ربما يتعاطف مع المتّهم، ومن يتعاطف مع المتّهم ربما يكون مثله. فجاء الناس. جاؤوا بالمئات. رجال ونساء وأطفال وشيوخ. بعضهم جاء خوفًا وبعضهم جاء فضولًا وبعضهم جاء لأن هذا هو الترفيه الوحيد في مدينةٍ صغيرة لا يحدث فيها شيء. أحضروا معهم طعامًا وشرابًا كأنهم ذاهبون إلى مهرجان.

ملأ الناس الساحة وامتدّوا إلى الشوارع المتفرّعة منها. الأطفال تسلّقوا الجدران والأسوار ليروا بشكلٍ أفضل. والنساء وقفن في الشرفات والنوافذ المطلّة على الساحة. وباعة متجوّلون انتشروا بين الجموع يبيعون الماء والفاكهة. يومٌ مشمس حارّ من أيام يوليو، والساحة تغلي بالبشر والعرق والترقّب.

ثم جاء الموكب.

خرج الموكب من مبنى المحكمة بعد صلاة الظهر.

في المقدّمة سار حاملو الصلبان. صلبانٌ كبيرة من الخشب المذهّب يحملها رهبانٌ بأردية بيضاء. خلفهم سار رجال الدين بأرديتهم السوداء والبنفسجية، يتلون صلواتٍ بصوتٍ رتيب. ثم جاء القضاة والمسؤولون المدنيون بثيابهم الرسمية. ثم حرسٌ من الجنود. وفي آخر الموكب جاءت أورسكا.

كانت تمشي حافية القدمين على حجارة الشارع الخشنة. ألبسوها ثوبًا أصفر اللون يسمّونه السانبينيتو، وهو ثوب العار الذي تُلبسه محاكم التفتيش لمن يُحكم عليهم بالموت. ثوبٌ فضفاض مرسومٌ عليه لهب ونار وشياطين، كأنهم يريدون أن يقولوا إن هذه المرأة تنتمي إلى الجحيم قبل أن يرسلوها إليه. وعلى رأسها وضعوا قبّعة مخروطية طويلة من الورق المقوّى مرسومٌ عليها اللهب أيضًا، تسمّى الكوروثا، تجعل من يرتديها أضحوكة وعلامة قبل أن يكون ضحية.

مشت في الشارع بين صفّين من الناس.

كان بعضهم يصيح بها. يسبّها ويلعنها ويقذفها بكلماتٍ لا تليق. وكان بعضهم يبصق في طريقها. وكان الأطفال يركضون بجانب الموكب ويضحكون ويشيرون إلى قبّعتها المخروطية

كأنها لعبة مسلّية. هذا ما أرادته محاكم التفتيش بالضبط: أن تحوّل الضحية إلى مسخ قبل أن تقتلها، أن تنزع عنها إنسانيتها في عيون الناس حتى لا يشعر أحدٌ بالشفقة حين تشتعل النار.

لكن بين هذا الصخب كلّه كانت هناك عيونٌ أخرى. عيونٌ لا تصيح ولا تبصق ولا تضحك. عيونٌ رطبة مطأطأة تنظر من خلف الأكتاف وتعرف بالضبط من هي هذه المرأة وماذا يعني ثوبها الأصفر ولماذا تموت. عيون الموريسكيين الذين يقفون بين الجمهور كأنهم جزءٌ منه، يصفّقون حين يصفّق الناس ويهتفون حين يهتفون، لكن في صدورهم شيئًا يتمزّق بصمت. كانوا يرونها ويرون أنفسهم. يرون أمّهاتهم. يرون مصيرهم لو انكشف سرّهم. وكان كل واحدٍ منهم يبتلع دموعه ويخفيها كما يخفي صلاته، لأن البكاء على مارية يعني التعاطف مع مارية، والتعاطف مع مارية يعني أنك مثل مارية، وأن تكون مثل مارية يعني أن العمود القادم لك.

وصل الموكب إلى الساحة.

رأت أورسكا العمود. رأت الحطب المرصوص حوله والقشّ والسلسلة الحديدية. رأت ما ينتظرها بوضوحٍ تام لا رحمة فيه. والناس حولها مئات، ألوف ربما، وجوهٌ بلا ملامح في عينيها، بقعة بشرية هائلة تنتظر أن تراها تحترق.

أصعدوها إلى المنصّة الخشبية المرتفعة قليلًا عن الأرض حيث يقف العمود. وقبل أن يربطوها قُرئ الحكم بصوتٍ عالٍ على الجمهور. وقف مسؤولٌ من المحكمة وفتح ورقة وقرأ: إن المحكمة المقدّسة لديوان التفتيش في لوغرونيو قد حكمت على مارية كليمنتي، أرملة لويس دي مدينا، بالإدانة بتهمة الردّة والعودة إلى شريعة المحمّديين، وإنها اعترفت بذلك

ورفضت التوبة والرجوع إلى الإيمان المقدّس، وإنها بذلك تُسلَّم إلى الذراع العلمانية لتنفيذ حكم الله فيها.

حكم الله. هكذا قالوا. كأن الله أمرهم بأن يحرقوا امرأةً لأنها تتوضّأ وتصوم وتصلّي له.

ثم تقدّم منها راهبٌ يحمل صليبًا ورفعه أمام وجهها. كان هذا آخر ما تفعله المحكمة قبل التنفيذ: تعرض على المحكوم عليه الصليب للمرة الأخيرة. فرصة أخيرة. قبّلي الصليب واعترفي بالمسيح مخلّصًا وسنخنقكِ قبل أن تمسّكِ النار. هذا كان العرض: لا نجاة من الموت، لكن موتًا أرحم. الخنق بدل الحرق. خمس دقائق من الاختناق بدل ساعة من النار.

وكان كثيرٌ من المحكوم عليهم يقبلون هذا العرض في اللحظة الأخيرة. ليس عن إيمانٍ بالصليب بل عن رعبٍ من النار. والمحكمة كانت تعرف ذلك ولا يهمّها. كانت تريد المشهد: المحكوم عليه يقبّل الصليب أمام الجمهور. النصر الأخير. القوس الأخير قبل إسدال الستارة.

رفع الراهب الصليب أمام وجه أورسكا.

نظرت إليه.

ثم أدارت وجهها.

لم تقبّله. لم تلمسه. لم تنظر إليه ثانية.

أدارت وجهها وأغمضت عينيها ولم تقل كلمة.

يمكنك أن تقرأ هذا السطر بسرعة. يمكنك أن تمرّ عليه كما تمرّ على أي سطرٍ في أي كتاب. لكن توقّف لحظة وتخيّل. تخيّل أنك مربوط إلى عمود. وأن حطبًا جافًّا مرصوص حول قدميك. وأن مئات الناس ينظرون إليك. وأنك تعرف أنه بعد دقائق ستشتعل فيك

نار. وأن رجلًا يقف أمامك ويقول لك: كلمة واحدة تنجيك من هذا كلّه. ليس النجاة من الموت، بل النجاة من أن تُحرق حيًّا. كلمة واحدة وتموت خنقًا في ثوانٍ بدل أن تذوب في النار على مدى دقائق طويلة من العذاب الذي لا يوصفه لسان. كلمة واحدة.

ثم تخيّل أنك لم تقلها.

هذا ما فعلته أورسكا.

أدارت وجهها عن الصليب وعن الراهب وعن العرض وعن الرحمة المزيّفة وعن كل شيء.

واختارت النار.

ربطوها إلى العمود بالسلسلة الحديدية. لفّوا السلسلة حول خصرها وصدرها وشدّوها حتى صارت ملتصقة بالخشب لا تستطيع أن تتحرّك. كانت واقفة فوق الحطب، قدماها على الأغصان الجافة، والقشّ حول كاحليها.

ثم تقدّم الجلّاد بالمشعل.

في تلك اللحظة الأخيرة، اللحظة التي تفصل بين العالم كما تعرفه أورسكا والعالم الذي لن تعرفه بعد الآن، ماذا كان في رأسها؟ ماذا كان آخر شيء فكّرت فيه؟

لا يعرف أحدٌ إلا الله.

لكن أعرف أنها كانت امرأة حفظت سورة الإخلاص قبل أن تحفظ اسمها. وأعرف أن شفتيها تحرّكتا طوال حياتها بكلماتٍ لم يسمعها أحد. وأعرف أن آخر ما تعلّمته من أمّها هو أن تختار الله رغم كل شيء. فليس من كثير التخيّل أن أقول إنها في تلك اللحظة كانت تهمس. تهمس كما همست طوال عمرها. لا أحد يسمعها إلا الذي سمعها دائمًا.

وضع الجلّاد المشعل على القشّ.

اشتعل القشّ بسرعة. ثم انتقلت النار إلى الحطب. ثم بدأ الدخان يتصاعد كثيفًا أبيض في البداية ثم رماديًّا ثم أسود. تصاعد حتى غطّى النصف الأسفل من جسدها. والنار تكبر. تأكل الحطب أغصانًا أغصانًا وتتسلّق نحو الأعلى. والحرارة تشتدّ. والجمهور يتفرّج.

لا أريد أن أصف لك ما يفعله الحرق بجسد الإنسان. لا تحتاج أن تعرف ذلك ولا أحتاج أن أكتبه. يكفيك أن تعرف أنه من أشدّ أنواع الموت ألمًا وأبطئها وأقساها. ويكفيك أن تعرف أن من اخترعوا هذه الطريقة اختاروها بالتحديد لأنها الأشدّ، ليكون المشهد رادعًا لكل من يفكّر أن يكون مثل هذه المرأة.

لكن شيئًا واحدًا أقوله.

الأرشيف لم يسجّل أنها صرخت. لم يسجّل أنها استغاثت. لم يسجّل أنها طلبت الرحمة أو نادت بالصليب أو تراجعت عن كلمةٍ واحدة ممّا قالته في التحقيق. كل ما سجّله الأرشيف أنها أُحرقت حيّة لأنها مسلمة.

والنار التي أكلت جسدها في ذلك اليوم من يوليو سنة 1585م في ساحة لوغرونيو، تلك النار انطفأت. وتحوّل الحطب إلى رماد. وتفرّق الجمهور وعاد إلى بيوته وأكل عشاءه ونام. والراهب عاد إلى كنيسته. والكاتب أغلق ملفّه ووضعه في الرفّ. وانتهى كل شيء.

إلا شيئًا واحدًا لم ينتهِ.

الكلمات التي زرعتها أورسكا في صدور أبنائها قبل أن يأخذوها.

تلك لم تمسّها النار.

الخاتمة

سجلٌّ لا ينتهي

قبل نحو عشرة قرونٍ من إحراق أورسكا، وفي صحراءٍ بعيدة على الجانب الآخر من العالم، وقفت امرأةٌ عجوز تحت شمس مكة وهي تُعذَّب.

كان اسمها سمّية بنت خيّاط. امرأةٌ فقيرة لا تملك شيئًا إلا إيمانها. طعنها أبو جهل بحربته وهو يصرخ بها أن تكفر بمحمد ﷺ وتعود إلى آلهة قريش. فلم تفعل. ماتت ولم تقل الكلمة التي أرادوها. فكانت أول شهيدة في الإسلام.

بين سمّية وأورسكا نحو ألف سنة. ألف سنة تغيّر فيها كل شيء: اللغة والجغرافيا والأزياء والأسلحة وأشكال الحكم وأنواع العذاب. لكن المشهد لم يتغيّر. امرأة تقف وحدها أمام قوةٍ تريد أن تمحوها. يُطلب منها أن تقول كلمةً واحدة لتنجو. فترفض. وتموت. وتبقى.

هذا هو المشهد الذي يتكرّر منذ فجر الإيمان. يتكرّر بأسماء مختلفة وفي أماكن مختلفة وبأدوات مختلفة، لكن جوهره واحد لا يتبدّل: بشرٌ يرفضون أن يتخلّوا عن الله مهما كان الثمن. وبشرٌ آخرون لا يفهمون لماذا لا يتخلّون. هذا العجز عن الفهم هو الذي يدفعهم إلى القتل. لأن الطاغي لا يحتمل أن يرى إنسانًا أضعف منه بألف مرة ومع ذلك لا ينكسر. هذا الثبات يجنّنه. يُشعره أن كل قوّته وجيوشه ومحاكمه وسلاسله وأعمدة حرقه لا تساوي شيئًا أمام شيءٍ لا يستطيع أن يراه ولا أن يمسّه ولا أن يفهمه. شيءٌ في الصدر لا تصل إليه يد.

أورسكا لم تكن وحدها.

الأرشيف التاريخي الوطني الإسباني يضمّ آلاف الملفات لموريسكيين ويهود عُذّبوا وأُحرقوا وهُجّروا وسُلبوا ومُحيت هوياتهم. آلاف القصص مطوية في أوراقٍ صفراء بخطوطٍ لاتينية باردة كُتبت بأيدي كتبةٍ لم يرتجف لهم قلم. كل ملفّ فيها إنسان. كل سطرٍ فيها حياة. وأغلب هذه الحيوات لن يعرفها أحد، لأن لا أحد سيفتح تلك الملفات ولا أحد سيقرأ تلك الأسماء ولا أحد سينفخ الروح في تلك الحروف الميتة.

لكن أورسكا قُرئت من بين الآلاف، وصل اسمها إلينا.

ربما لأن قصتها كانت مكتوبة بوضوحٍ أكثر من غيرها.

أو ربما لأن اعترافها الصريح ورفضها التراجع جعلا ملفّها يبرز بين الملفات.

أو لأن الله أراد لها أن تُقرأ. أن لا تبقى مجرد رقمٍ في أرشيف.

أن يعرف الناس بعد أربعمئة وأربعين سنة أن امرأةً في لوغرونيو أُحرقت حيّة لأنها صامت رمضان وعلّمت أطفالها القرآن.

أن يعرفوا أنها لم تبكِ أمامهم ولم تتراجع ولم تقبّل الصليب.

أن يعرفوا اسمها الحقيقي **أورسكا**. وأن يعرفوا أيضًا من قتلها.

أن يعرفوا أن الذين أحرقوها هم أنفسهم الذين يقولون للعالم إن دينهم دين المحبّة والسلام والتسامح. هم أنفسهم الذين يرفعون الصليب بيدٍ ويشعلون النار بالأخرى.

هم الذين حين كانوا ضعفاءً كلّموا الناس عن محبة المسيح وسلامه، فلمّا صارت لهم دولة وجيوش وأساطيل أحرقوا كل من لا يشبههم ولم ترمش لهم عين.

لم تكن محاكم التفتيش انحرافًا عن المسار ولا خطأً عابرًا ارتكبه بعض المتعصّبين، بل كانت مؤسسة رسمية باركها البابا وموّلها الملوك وأدارها كبار رجال الدين، استمرّت ثلاثة قرونٍ كاملة وهي تقتل وتحرق وتنفي باسم المسيح الذي قالوا إنه جاء ليفتدي البشرية بمحبّته.

فلتُقرأ قصة أورسكا ولتبقَ شاهدةً على الفرق بين ما يقولونه وما يفعلونه، وليدعُ لها كل من يقرأها، لأن أقلّ ما تستحقّه هذه المرأة التي ماتت وحيدةً أن لا تُنسى وأن يصلها دعاء المسلمين بعد أربعة قرونٍ من دعاءٍ لم يجرؤ أحدٌ أن يرفعه لها يوم أُحرقت.

أن يعرفوا أنها لم تبكِ أمامهم ولم تتراجع ولم تقبّل الصليب.

حين أحرق الكاردينال سيسنيروس مخطوطات غرناطة في ساحة باب الرملة، ظنّ أنه يمحو ذاكرة شعبٍ بأكمله. وحين أصدر التاج الإسباني قرارات التنصير القسري، ظنّ أنه يمحو دينًا من الأرض. وحين أحرقت محاكم التفتيش أورسكا في ساحة لوغرونيو، ظنّت أنها تمحو آخر خيطٍ يربط هذه المرأة وأبناءها بالإسلام.

لكنهم أخطؤوا في الحساب.

أخطؤوا لأنهم لم يفهموا طبيعة ما يحاربون. ظنّوا أن الدين في الكتب فأحرقوا الكتب. وظنّوا أنه في المساجد فهدموا المساجد. وظنّوا أنه في اللسان فحرّموا اللسان. وظنّوا أنه في الأجساد فأحرقوا الأجساد. لكن الدين لم يكن في أيٍّ من ذلك. كان في المكان الذي أشارت إليه نانا حورية بيدها المرتجفة ذات ليلة في غرناطة. المكان الذي لا يدخلونه. المكان الذي نقلت منه زينب إلى أورسكا، ونقلت منه أورسكا إلى أبنائها، وسينقل منه الأبناء إلى أبنائهم ما دام هناك من يهمس.

أُحرقت المخطوطات فحُفظ القرآن في الصدور. وهُدمت المساجد فصار كل ركنٍ مظلم في كل بيتٍ مسجدًا. وحُرّمت العربية فانتقل الدين بالهمس. وأُحرقت الأجساد فبقي ما في الصدور. لأن ما في الصدور لا يحترق.

لا أعرف ما حدث لأبناء أورسكا بعد إعدامها.

الأرشيف لا يقول. ربما اعتُقل بعضهم. ربما هرب بعضهم. ربما عاشوا بقية حياتهم في رعبٍ يأكلهم من الداخل. وربما حمل أحدهم ما زرعته أمّه في صدره ونقله إلى أبنائه كما نقلته هي إليه. لا نعرف. لكننا نعرف أن بعد أربعةٍ وعشرين سنة من إعدام أورسكا، في سنة 1609م، أصدر الملك فيليب الثالث قرار الطرد النهائي لكل الموريسكيين من إسبانيا. ثلاثمئة ألف إنسان طُردوا من أرضهم إلى شمال أفريقيا والدولة العثمانية. ثلاثمئة ألف إنسان حملوا في صدورهم ما بقي من الأندلس ومشوا.

ذهبوا إلى تونس والجزائر والمغرب وليبيا ومصر وإسطنبول وسالونيك. حملوا معهم مفاتيح بيوتهم التي لن يعودوا إليها، كما سيفعل الفلسطينيون بعدهم بثلاثة قرون ونصف. حملوا أسماء عائلاتهم التي تدلّ على مدنهم الأندلسية: الغرناطي والقرطبي والإشبيلي. وحملوا في صدورهم ما حملته أورسكا: إيمانًا زرعته أمّهات في ظلام الخوف وسقته جدّات بالدموع وحفظه أطفال قبل أن يحفظوا أي شيءٍ آخر.

هذه القصة لم تنتهِ بإحراق أورسكا.

ولم تنتهِ بطرد الموريسكيين.

لأن المشهد نفسه يتكرّر اليوم. في أماكن أخرى وبأدوات أخرى وبأسماء أخرى، لكنه المشهد نفسه: في تركستان الشرقية المحتلة من قبل الصين مسلمون يُمنعون من صلاتهم

وصيامهم ولسانهم وهويتهم، تُهدم مساجدهم ويُحلق شعر نسائهم ويُفصل أطفالهم عن أمّهاتهم في معسكراتٍ سمّوها إعادة تأهيل كما سمّى الإسبان محارقهم حفلات إيمان.

مسلمون في ميانمار يُعاقبون على إيمانهم، تُحرق قراهم ويُذبحون على ضفاف الأنهار ويُلقون في البحر على قواربٍ متهالكة لا يفتح لها ميناءٌ في العالم.

مسلمون في كشمير يعيشون خلف الأسلاك الشائكة وتحت حظر التجوّل ويختفي شبابهم في معتقلاتٍ لا يعود منها أحد.

مسلمون في أفريقيا الوسطى يموتون بلا كاميرا ترصدهم وبلا عنوان في نشرات الأخبار، كأن دماءهم أرخص من أن تُذكر.

مسلمون في غزة يُحاصرون ويُقصفون ويُجوَّعون ويُقتلون لأنهم رفضوا أن يكونوا غير ما هم، تُسوّى مساجدهم ومستشفياتهم ومدارسهم بالأرض وتُقطع عنهم أسباب الحياة كلّها ومع ذلك يرفعون من تحت الأنقاض أصابعهم إلى السماء ويقولون: حسبنا الله ونعم الوكيل.

والعالم يتفرّج كما تفرّج أهل لوغرونيو في ذلك اليوم من يوليو: بعضهم بغضب وبعضهم بشماتة وأكثرهم بصمتٍ يشبه التواطؤ.

لكن بين المتفرّجين دائمًا عيون رطبة لا تنسى.

وفي بيوتٍ مغلقة الأبواب دائمًا أمّهات يهمسن.

وفي صدور الأبناء دائمًا شيء لا يحترق.

أورسكا يا أمّاه.

أنتِ التي لم يحفظ التاريخ إلا اسمًا مسروقًا لكِ وتاريخ إعدامكِ وسطرين في ملفّ إدانة.

أنتِ التي لم تملكي سيفًا ولا جيشًا ولا قلعة. أنتِ التي كان سلاحكِ الوحيد صوتًا أخفض

من النبض وقلبًا أصلب من عمود الحرق الذي ربطوكِ إليه. أنتِ التي علّمتِ أبناءكِ أن الله يكفي حين لا يبقى أحدٌ غيره. أنتِ التي أدرتِ وجهكِ عن الصليب لأنكِ كنتِ تنظرين إلى شيءٍ أبعد وأعظم لا يراه الجلّاد ولا القاضي ولا الراهب.

أنتِ لم تموتي.

لأنكِ الآن تُقرئين. وقصتكِ التي أرادوا لها أن تتعفّن في قبوٍ صارت تُروى. وأبناؤكِ الذين علّمتِهم القرآن همسًا صاروا ملايين.

ما دام في الأرض أمّ تهمس لطفلها «قل هو الله أحد» وهي تعرف أن الثمن قد يكون كل شيء، فأنتِ حيّة.

ما دام في الأرض صدرٌ ينبض بـ«لا إله إلا الله» رغم كل عمودٍ وكل نارٍ وكل محكمة، فالأندلس لم تسقط.

والنار لم تنتصر.

اللهم ارحم أورسكا وارحم أمّها وأباها وجدّتها وزوجها وكل من مات على التوحيد في أرض الأندلس ولم يعرف التاريخ اسمه.

اللهم اجعلهم في جنّات ونهر، في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر.

اللهم ارحم كل أمٍّ زرعت الإيمان في صدور أبنائها وهي تعلم أن الثمن قد يكون روحها.

اللهم ارحم كل من توضّأ في الظلام وصلّى في الخوف وصام في الصمت وحفظ كتابكَ همسًا لأن الجهر كان يعني الموت.

اللهم تقبّلهم في الشهداء واكتبهم عندك في الصدّيقين واجمعنا بهم في الفردوس الأعلى مع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

اللهم ثبّت إخواننا وأخواتنا الذين يُمتحنون اليوم في دينهم في كل أرض، وارزقهم صبر أورسكا ويقين سمّية وثبات بلال.

آمين.

المراجع: الأرشيف التاريخي الوطني الإسباني: AHN, Inq. lib. 834, f°263 r° — جان فيدال، Quand on brûlait les morisques — حين كانوا يحرقون الموريسكيين